

صفات النفوس



obeikandi.com

الملقظة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه.

ثم أما بعد:

فإن تنعم العبد بالعيشة الراضية في الدنيا، هو الموصل للعيشة الراضية في الآخرة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ أَكُنِيَّةً ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (الحاقة: ١٩-٢١)، وذلك مرهون بصلاح نفس العبد، وزكاتها كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشَّمْسُ: ٩، ١٠).

ولأن طريق صلاح النفس وتزكيتها يتضمن مخالفتها لمألوفها وهواها، صارت النفوس - في البداية - تستعصي وتمنع، وتأبى وترفض سلوك طريق أهل الإحسان، مع أن خيرها وفلاحها في سلوكها لها؛ ولذا فإن العاقل هو الذي يقود نفسه ويأخذ بيدها للسير فيها، ولا يتسنى له ذلك إلا بمعرفة طباع النفس وصفاتها؛ ليكون على بينة من أمره في دعوتها وقيادتها، فهذه رسالة حاولت فيها - قدر المتاح - جمع كثير من صفات النفوس؛ لتكون عوناً لي ولإخواني على تأديب النفس وإقناعها بسلوك طريق الإحسان، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تنبيه هام:

قد نقلت بعض النقول عن الغزالي والمحاسبي - رحمهما الله - وهما على ما نظنه من صلاحهما، إلا أن في كتبهما بعض الأمور المخالفة لهدي السلف في إصلاح النفس وتهذيبها، ولذا لا ينبغي لكل أحد أن يقرأ كتبهما إلا من يستطيع تمييز الصواب من الخطأ، والله المسئول أن يغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات.

كتبه

دكتور/ هادي عبد الله بن زهرى

obeikandi.com

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

التعريف بالنفس وحقيقة تأديبها

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النفس اسمٌ مشتركٌ بين معانٍ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما- أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهذا هو الاستعمال الأغلب عند أهل الزهد؛ أنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بدَّ من مجاهدة النفس وتأديبها.

ثانيهما- هي اللطيفة العالمة المدركة التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزال عنها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت (النفس المطمئنة) قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٨، ٢٧)، فإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعةً للنفس الشهوانية، ومعتزلةً عليها سميت النفس اللوامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (القيامة: ٢)، وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء، قَالَ تَعَالَى إخبارًا عن كلام امرأة العزيز: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣)، وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأول» (انتهى كلامه بتصرف يسير من كتاب «الإحياء»).

وكلامنا عن النفس في هذه الرسالة يتعلّق بالمعنى الأول الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ وعلى القول بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣)، تُراد النفس فيه بالمعنى الأول، يكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ استثناءً

منقطعاً، ويكون معناه «ولكن من رَحِمَهُ اللهُ يلهمه رشدَه، فيجيب داعيَ الإيمان، ولا يجيب داعيَ النفس الأمّارة بالسوء».

وقال رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «منهاج العابدين»: «ثمّ عليك - يا طالب العبادة عصمك الله وإيانا - بالحذر من هذه النفس الأمّارة بالسوء؛ فإنّها أضّر الأعداء، وبلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أصعب الأشياء، ودواؤها أعضلّ الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنّها ذلك لأمرين:

أحدهما- أنّها عدوّ من داخل الجسد، واللص إذا كان من داخل البيت عزّت فيه الحيلة وعظم الضرر، وصدق القائل:

نَفْسي إلى ما ضَرَّني داعي تكثير أسقامي وأوجاعي
كيف احتيالي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

الثاني- أنّها عدوّ محبوب، والإنسان عمّ عن عيب محبوه لا يكاد يبصر عيبه، كما قال القائل:

ولست ترى عيباً لذي الودِّ والإخا ولا بعض ما فيه إذا كنتَ راضياً
وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلّة ولكنّ عين السُخْطِ تبدي المساويا

(انتهى كلامه)

قلتُ: قد رأى بعض العلماء أنّ الأصح أن يقال عن الشيطان: «أنّه أضّر الأعداء» واستدلّ له بكثرة التحذيرات من الشيطان في القرآن والسُنّة، والتي فاقت التحذير من النفس، وعلى كل حالٍ، فكلاهما عدوّ لدود إلّا أنّ النبي ﷺ بدأ باستعاذته من النفس، فقال: «أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، وبحسب المرء ما يشاهد من حالاتها، ورداءة إرادتها، وسوء اختيارها،

فهي في حال الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سَبْعٌ، وفي حال المصيبة كالطفل الصغير، وفي حال النعمة كالفرعون، وفي حال الجوع جزعة، وفي حال الشبع مختالة، وأي رداءٍ لها - كما قال بعض الصالحين - من أثمها إذا هَمَّتْ بمعصية أو انبعثت لشهوة ثم ذكَّرتها بأن الله لا يحب ذلك لا تعطي الانقياد ولا تترك الشهوة، ولو عرضت عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار، فإن خَوَّفَتهَا بمنعها من مباح شهوة سكنت وتركت المعصية؛ لتعلم خستها وجهلها».

وترجع خطورة أمر النفس، أثمها - كما قال الغزالي -: «لا يمكن قهرها بمرة كسائر الأعداء؛ إذ هي المطية والآلة، ولا يمكن إهمالها بمرة لمكان ضررها، فيحتاج المرء في تقويمها إلى طريقين بين طريقين» قلتُ: وذلك بإعطائها حظاً من مباح شهواتها بقدر ما يقوِّمها على أداء الطاعات، ومنعها من الزائد من الشهوات التي تقسي القلب وتورث الكسل والغفلة.

وقال المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنه لن ينال منك عدوك ما يريد إلا من قبَل هوى نفسك، فعليك بتفقد أحوالها لتبصر نفورها من طاعة ربها، وتزينها بما لا يحب خالقها؛ فهي معدن كل سوء، والداعية إلى كل بليّة، أخبرك عنها خالقها بأنها بالسوء أمّارة؛ فخذ منها حذرک، واتمها على دينک».

قلتُ:.. اتباع النفس لهواها يورثها الغفلة عن عيوبها، ويُعمي البصيرة عن آفاتِها، فتستأنس بالذنوب، وتستلذ بالخطيئة، وفي المقابل تنفر من الطاعة، وتضجر من النصيحة، ويحبسها جند الهوى في قبور الشهوات، فلا تعود ترى العيوب والآفات.

إنّ المرأة لا تريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لا تريك عيوب نفسك مع هواها

والمراد من ذمّ الهوى: ذمّ المفرط منه، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، فإنه لولا ميل الإنسان إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهي، فلهوى مستجلب له ما يفيد، كما أنّ الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا يصلح ذمّ الهوى على الإطلاق؛ بل ذمّ الهوى المطغي، قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، ومدح سبحانه من خالف هواه، فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (التائيات: ٤٠)، وذمّ من تابع هواه فقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (الأنعام: ١٧٦) «انتهى بتصرف من كتاب سباق نحو الجنان لـ د/ خالد أبو شادي».

فليس المقصود من تأديب المرء لنفسه منعها بالكلية من كل ما تشتهي، ولا تغيير طبيعتها، فيجعل حلقة نفسه حلقة لا تنازعه إلى شهوة.

قال المحاسبي رحمه الله: «فإنك لم تكلف أن تجعل طبع نفسك بهيئة من لا يغفل ولا يسهو، ولا ينازع إلى محبوب، ولا مكروه، فذلك طبع الملائكة، وإنما كُلفت أن تعقل بقلبك عن الله، فلا تميل إلى غير طاعته».

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «فأما مَنْ دام على مخالفة نفسه على الإطلاق، فإنه يعمي قلبها، ويبلد خواطرها، ويشتت عزائمها، فيؤذيها أكثر مما ينفعها».

وقد قال إبراهيم بن أدهم: «إنّ القلب إذا أكره عَمِيَ»، فالشهوة باعث على مصلحة البدن غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى، ومتى مُنعت النفس ما تريد على الإطلاق - مع الأمن من فساد العاقبة - عاد ذلك على النفس بالفساد، ووهن الجسم، واختلاف السقم، مثل أن يمنعها الماء عند اشتداد العطش، والغذاء عند الجوع، والجماع عند قوة الشهوة، والنوم عند غلبته، ومن فعل ذلك فقد خالف طريق رسول الله ﷺ وأصحابه من حيث النقل، وخالف الموضوع من حيث الحكمة، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (المائدة: ٨٧).

وكان سفيان الثوري يحمل في سفره الفالودج والحمل المشوي ويقول: «إن الدابة إذا أحسن إليها عملت»، وأخبر الحسن البصري عن رجل لا يأكل الفالودج لأنه لا يؤدي شكره فقال: «هو جاهل، فهل أدى شكر الماء البارد؟»، ورُبَّ مضيقٍ على نفسه فرّت منه فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهاها في تناول ما ترجو به العافية، ويدوّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعمٍ ربما جرّ جوعاً، ومن لقمةٍ ربما حرمت لقمات، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها - بل يرخي لها في وقتٍ، والزمّام بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها مالت ردّها باللفظ، فإن ونت وأبت فبالعنف (أي: رغماً عنها)» (انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ من كتاب صيد الخاطر).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موضعٍ آخر من نفس الكتاب: «ثمّ إنّنا قد كُلفنا حفظ النفس، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها، فلا بد من إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أو كلّ ما تشتهي، ونحن كالوكلاء في حفظها؛ لأنّها ليست لنا بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر، ورُبَّ شدٍّ أوجب استرخاءً».

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «وإنّما تذلل نفسك وتكسر هواها بثلاثة أشياء:

أحدها - منع الشهوات^(١)؛ فإنّ الدابة الحروان تلين إذا نقص من علفها.

الثاني - حمل أثقال العبادات عليها^(٢)، فإنّ الحمار إذا زيد في حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد.

(١) المراد من منعها الشهوات هو ما قدمناه من منعها الزائد عن حاجتها لا ما تستعين به على أداء الطاعات.

(٢) المراد من حمل أثقال العبادات عليها هو تحميلها من الطاعة ما تكسل عنه ممّا تطيق من طاعة الله؛ فإنّها كسولة غافلة، وليس المراد تحميلها ما لا تطيقه، ففي الحديث: «كلفوا من العمل ما تطيقون».

الثالث- الاستعانة بالله والتضرع إليه بأن يعينك، وإلا فلا مخلص! أما تسمع ﴿إِنَّ
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ ﴿يُوسُفُ: ٥٣﴾ (انتهى من منهاج العابدين).

قلتُ: فالنفس كالدابة قد تجمع بصاحبها إلى مهاوٍ سحيقة من غضب الله وسخطه،
فلا بد من الحذر منها، إلا أنه لا بد من التلطف بها.

وما أجمل ما قاله ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «صيد الخاطر»: «فإن قاطع مرحلتين
في مرحلة خليق بأن يقف، وإذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها، وأخذ الراحة
للجدِّ جدّ، وغوص السابح في طلب الدّر صعود، ودوام السير يحسر الإبل، والمفازة
صعبة، ومن أراد أن يرى التلطف بالنفس، فلينظر في سيرة الرسول ﷺ، فإنه
كان يمازح أحياناً، ويخالط النساء، ويُقبّل، ويُستعذب له الماء البارد، ويختار الماء البارد،
والأوفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى، وهذا كله رفقٌ بالناقة في طريق
السير، فأما من جرّد عليها السيوط، فإنه يوشك ألا يقطع الطريق، وفي الحديث: «إن
هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى» (رواه أحمد
وحسنه الألباني في صحيح الجامع).

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «والحازم من تعلم نفسه منه الجدّ وحفظ الأصول، فإذا فسح
لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالمملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا ينبسط
إليه الغلام، فإن انبسط ذكر هيبة المملكة» (انتهى من «صيد الخاطر»).

الفصل الثاني

فضل تأديب النفس والمجاهدة في ذلك

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا كَانَ جِهَادُ أَعْدَاءِ اللَّهِ فِي الْخَارِجِ فِرْعَاءً عَلَى جِهَادِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مَقْدَمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا لَتَفْعَلْ مَا أَمَرْتَ بِهِ، وَتَتْرَكَ مَا نُهِيتَ عَنْهُ، وَيُحَارِبَهَا فِي اللَّهِ لَمْ يُمْكِنْ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ جِهَادُ عَدُوِّهِ وَالْإِنْتِصَافُ مِنْهُ؟! وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ لَمْ يَجَاهِدْهُ وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ؛ بَلْ لَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يَجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ» (انظر زاد المعاد ٥/٣).

وقال عمر بن عبد العزيز: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا أَكْرَهَتْ عَلَيْهِ النَّفُوسُ»، وقال حاتم الأصم: «الموت الأحمر: مخالفة النفس»، وقد بيّن النبي ﷺ فضل جِهَادِ النَّفْسِ، فقال: «وَالْمُجَاهِدُ: مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ» (رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة)، وقال ابن المبارك في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٨) قال: «هو جِهَادُ النَّفْسِ وَالْهَوَى»، وأورد ابن رجب في جامع العلوم والحكم أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَجَاهِدْهَا، وَأَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَاغْزُهَا».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْعَاجِزُ مَنْ عَجَزَ عَنِ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ».

يَا مَنْ يَجَاهِدُ غَازِيًا أَعْدَاءَ دِينِ اللَّهِ يَرْجُو أَنْ يُعَانَ وَيُنْصِرَا
هَلَا غَشِيَتِ النَّفْسُ غَزْوًا إِنَّهَا أَعْدَى عَدُوِّكَ كَيْ تَفُوزَ وَتُظْفِرَا

وقال بعض الحكماء: «مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ سَادَ نَاسَهُ»، وقال آخر: «مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أَعْطَى عَدُوَّهُ مَنَاهُ»، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ﴾ (البقرة: ٦٠) «يَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْبَرِّ وَيَخَافُونَ أَلَّا يَنْجِيَهُمْ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ»، ولَمَّا وَفَّقَ اللَّهُ السَّلَفَ لِتَأْدِيبِ نَفُوسِهِمْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ أَعَاجِيبُ الْجَاهِدِ فِي الْعِبَادَةِ، كَانَ دَاوُدُ الطَّائِي

يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ويقول: «بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية»، وكان علقمة يكثر من الصيام والقيام، فقيل له: لم تعذب نفسك؟ فقال: «راحتها أريد»، وكان مسروق يقوم الليل حتى تورمت قدماه، وكان سفيان الثوري يقوم الليل، ويقول: «عند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الممات يحمد القوم التقى»، وكان الربيع بن خثيم لا ينام من الليل إلا قليلاً، فقالت له ابنته: يا أبتِ مالي أرى الناس ينامون، وأنت لا تنام؟ فقال: «يا ابتاه إنَّ أباك يخاف البيات»، وكان بعض السلف لا يفتر من التسبيح والذكر ليل نهار، فقيل: ما أكثر تسبيحك، فكم تُسبِّح؟ فقال: «مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع».

وقال الحسن: «أجهدت القوم العبادة».

وقال أيضاً: «كانوا لا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، وللدنيا أهون في أعينهم من التراب، وإن كان أحدهم ليعيش ما يأمر أهله بصنعة طعام قطّ، إذا جنّهم الليل فقياماً على أطرافهم، تجري دموعهم على خدودهم، إذا عملوا حسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، فإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك، وعلى ذلك».

قلتُ: وبذلك صاروا أفضل الناس وأقواهم على الحقيقة، قال بعض البلغاء: من قوي على نفسه تناهى في القوة، ومن صبر عن شهوته بالغ في المروّة.

الفصل الثالث

صفات النفوس

وهو فصلٌ أذكر فيه - بحول الله وقوته - كثيرًا من صفات النفس، وكيف يستغل المرء علمه بهذه الصفات من أجل تأديب نفسه والسلوك بها في طريق الإحسان، ولكن قبل ذكر هذه الصفات نبين أن المقصود والمراد من تأديب النفس، والغاية من وراء ذلك هي صلاح القلب واستنارته بنور الإيمان؛ لتنال النفس النعيم الكامل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)، وكذا لها الحظ الأوفر من النعيم في الدنيا.

يقول ابن القيم في «الجواب الكافي»: «والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تراحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنّة معجلة في الدنيا، وفي جنّة في البرزخ، وفي جنّة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوىٍ يناقض التجريد والإخلاص، وهذه هي الخمسة حُجِبَ عن الله».

الصفة الأولى - أنها لا تتجشّم مشقة السير في طريق لا تدري ما آخرها؛

فإنّ الشهوات محبوبةٌ إلى النفس، وتركها شاقٌّ عليها، فلا بد للعبد من إعلام نفسه بلذّة وحلاوة عاقبة السير في طريق تأديبها كي تطاوعه على سلوكها، وقد قال بعض السلف: «ما ترك أحدٌ شيئاً لله ثمّ وجد فقده أبداً».

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالله تبارك وتعالى أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، وتأمل حال إبراهيم لما أمر بذبح ولده، فبادر لأمر الله، ووافق الولد أباه رضاً منها وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء ففداه بذبحٍ عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملئوا الأرض، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (انظر مفتاح دار السعادة).

وقد أنشدوا لعلّي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
إني رأيتُ وفي الأيام تجربةً للصبر عاقبةً محمودةً الأثر
وقلّ من جدّ في أمرٍ يؤمّله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «منهاج العابدين»: «اعلم أنّ مَنْ عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومَنْ طاب له شيء ورغب فيه حق رغبته احتمل شدته ولم يُبالِ بما يلقي من مؤنته، ومن أحب أحداً حق محبته أحب أيضاً محنته، حتى إنّ له ليجد بتلك المحنة ضرراً من اللذة، ألا ترى الأجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد؛ لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشي؟ وأنّ الفلاح لا يفكر بمقاساة الحرّ والبرد ومباشرة الشتاء والكد طول السنة، لما يتذكر من المحصول أو ان الغلة؟ وكذلك - يا أخي - العباد الذين هم أهل الاجتهاد، إذا ذكروا الجنة في طيب مقليلها، وأنواع نعيمها من قصورها وحورها، وطعامها، وشرابها، وسائر ما أعدّه الله تعالى لأهلها هان عليهم ما احتملوه من تعبٍ في عبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من شهوة، أو ما نالهم من ضرر ومشقة» (انتهى بتصرف يسير).

قلتُ: وقد أحسن مَنْ قال:

مَنْ يرد ملك الجنان فليدع عنه التواني
وليقيم في جوف ليل مسرجاً نور القرآن
وليصل صوماً بصوم إن هذا العيش فاني

وليعلم السالك هذه الطريق أنه على موعدٍ مع السعادة، ولكن لا بد من الصبر، يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر الصبر يا مبتدئين، والفرح الفرح يا متوسطين، والفرح الكامل يا عارفين»، وقد وردت عن السلف عبارات كثيرة يعبرون فيها عن سعادتهم بالطاعات - خاصةً التغني بالقرآن في قيام الليل.

فعن أبي سليمان الداراني أنه قال: «أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم»، وقال آخر: «لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله لأوليائه لا يجدها سواهم»، وقال آخر: «ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة».

وقال علي بن بكار: «منذ أربعين سنة ما أحزني سوى انقضاء الليل».

وقد كثرت الكتب المصنفة في بيان ذلك، وليس من شرط كتابنا الخوض في التفاصيل، وإنما المراد التنبيه على طباع النفس، فمن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب المصنفة في ذكر أقوال وأحوال السلف كـ «كتاب الزهد للإمام أحمد، صفة الصفوة لابن الجوزي، تهذيب حلية الأولياء، سير أعلام النبلاء، البيان لأسباب زيادة الإيمان».

تنبيه: يعترض المرء في طريق سيره إلى الله عوائق، ولا بد له من فهمٍ وبصيرةٍ لطبيعة الطريق ومن الكتب المصنفة لبيان ذلك «مختصر منهاج القاصدين»، «البحر الرائق»، و«تركيب النفوس» للشيخ أحمد فريد، «تهذيب النفوس»، «الاستقامة».

الصفة الثانية- أنها لا تريد الشعور بالحرمان أو نقص الحظ؛

ولذا لا تزال تنازع صاحبها إلى الشهوات، ويشتد إباؤها ومنازعتها إذا أحسّت أنها محرومة منها، فإن قيل: فما سبيل تركها للشهوات إذا؟

قلت: بأن يبصرها المرء بعوار الشهوات، ومنقصة اتباعها، وبأن الحرمان من حلاوة الطاعة وثواب المحسنين أشدّ وأعظم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «حادي الأرواح»: «فيا عجباً من سفية في صورة حلیم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، أثر الحظّ الفاني الخسيس على الحظّ الباقي، وباع جنّة عرضها السماوات والأرض بسجنٍ ضيقٍ بين أصحاب العاهات والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار بُدورٍ ضيقةٍ آخرها الخراب والبوار، وأبكاراً عُرباً أتراباً، كأنهنّ الياقوت والمرجان بأخريات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخذان، ولذة النظر إلى وجه العزيز الكريم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسق مع كل شيطانٍ مريد».

وعليه كذلك أن يذكرها مغبة إسرافها في نيل مباح الشهوات، وهي ندمها وتألّمها بل وعدم التلذذ بها؛ فإنّ النفس تألفها فلا تكاد تستمتع بها بخلاف نيل الزاهد لها.

✽ وينبغي للمؤمن أن يستغلّ كراهية نفسه للشعور بالحرمان أو نقص الحظ، فيكثر من عرض أقوال السلف وأحوالهم وأخلاقهم عليه، وكيف نالوا أعظم السعادة، وأعظم النعيم بالطاعة في الدنيا قبل الآخرة، فتشتاق نفسه إلى مثل حالهم، وإلى سلوك طريقهم؛ لئلا تكون ناقصة الحظ عنهم؛ فلا تزال تشتاق وتلحّ في رجائها لذلك، وترغب إلى الله بذلك حتى يرزقها الله إياه؛ فإنّه «من أدمن طرق الباب يوشك أن يفتح له»، وعليه كذلك بمصاحبة المحسنين؛ فإنّه «من أكثر من مخالطة قومٍ عُرف منهم وإن لم يكن مثلهم».

وعليه كذلك بقراءة الثناء المنشور لعلماء السلف وعبادهم وزهادهم، فإنهم ما نالوا ذلك إلا بتقواهم وصبرهم، والنفس المؤمنة إذا شوّقت اشتاقت، وقد عُنت كتب السير بنقل هذا الثناء، وقد جمعتُ قدرًا حسنًا منه في كتاب (البيان لأسباب زيادة الإيمان).

فعلى المرء كلما دعت نفسه إلى ترك طريق الزهد أن يعرض عليها هذا الثناء لتشتاق إلى مثل حالهم فتصبر، فإن أبت مع كل ذلك إلا النفور والمنازعة أرغمها - ولو لم تقنع - قال بعض السلف: «دعوتُ نفسي إلى الله فأبت عليّ، فتركتها ومضيتُ».

وقال آخر: «قدتُ نفسي إلى الله وهي تبكي، فلم أزل بها حتى قادتني وهي تضحك».

وقال ابن المبارك: «إنّ الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإنّ أنفسنا لا تكاد تُواتينا إلا على كُرّه، ينبغي لنا أن نكرهها عليه».

ولكن... يجعل ذلك إلى أمدٍ قريب فيعلّلها بأنّها ستنال ما حرّمها منه عن قريب، فالدنيا كلّها قريب؛ ولذا كان الصالحون يصبرّون أنفسهم بنيل ما تريد في الجنّة، فكانت تصبر، فمن لم يكن عنده من اليقين ما يصبرّه مثلهم جعل لنفسه أمدًا يعطيها فيه ما لا يضُرُّ القلب ولا يَكْسَلُ عن العبادة، فمن تاقَت نفسه مثلاً إلى مزيدٍ من طعامٍ أو شرابٍ جعل لها حظًا منها في وقتٍ لا يضُرُّ بقيام الليل، وكذا من كان يحتاج إلى مزيدٍ طعامٍ وشرابٍ لمرضٍ أو عملٍ أو نحوهما؛ فإنّه يجعل الزيادة في السحور ليستطيع القيام والصلاة، فإذا حدثته نفسه عند وجبة المساء بالطعام صبرّها إلى الصباح، فإذا أحست النفس بعدم الحرمان ربما زهدت في الزيادة التي أباحها لها صاحبها في الصباح، وهذا أمرٌ مشاهد.

ويُحكى أنّ بشرًا مرّ مع رجلٍ في صحراء فعطش صاحبه فلمّا أتوا على بئرٍ قال له بشر: «اصبر حتى البئر الثاني» فلمّا أتوا عليه قال: «اصبر حتى البئر الثالث»، فلمّا أتوا

عليه قال: «اصبر حتى البئر الرابع» فلمّا أتوا عليه قال له بشر: «هكذا تقطع الدنيا»، فانظر كيف صبرت النفس لعلها بقرب البئر الثاني، ولو قال له من أول مرّة: «اشرب عند البئر الرابع» لربما أبى عليه.

الصفة الثالثة- أنها لا بد لها من هدف لا ينقطع رجاؤها منه حتى تستقيم

وتدوم:

فسالك طريق الإحسان لا بد له من هدف حتى تسعى نفسه بجهد وتستقيم وتستمر.

فالبعض يجعل هدفه من سلوك طريق الإحسان نيل السعادة القلبية في الدنيا قبل الآخرة؛ فإن للطاعة حلاوة ولذة يعرفها المحسنون، وهذا - وإن كان مشروعاً - إلا أنه مخوف لأن السعادة قد تأتي بعد فترة طويلة، وربما جزعت النفس ولم تصبر.

وأحسن النوايا وأسلمها نية نيل رضا الله ومحبته باتباع سنة الرسول ﷺ؛ فإن صاحبها إذا حدثته نفسه بالسعادة وتأخرها أخبرها بأنها متعبدة في هذه الحياة بطاعة الله وفق سنة النبي ﷺ، وكلما فعلت سنة كلما ازداد ثوابها وكان ذلك سبباً لمحبة الله لها سواء شعرت بالسعادة أم لا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، والسعادة آتية بلا شك - ولو بعد حين - ولكن الغرض الأساسي هو اتباع السنة في كل صغير وكبير، فإن حدثته نفسه أوقات الفتور بترك العمل أخبرها بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحج: ٩٩)، وبأقوال السلف بالصبر على السنة، والثبات على لزومها:

قال الحسن البصري: «السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى».

وقال أبي بن كعب: «إنَّ اقتصادًا في سبيل وُسْنَةٍ، خيرٌ من اجتِهَادٍ في خلاف سبيل وُسْنَةٍ».

وقال عمر بن عبد العزيز: «فعليك بلزوم السُّنَّة؛ فإنَّها لك بإذن الله عصمة».

وقال الزهري: «الاعتصام بالسُّنَّة نجاة».

وقال مالك: «السُّنَّة كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك».

وعن ابن شوذب قال: «إنَّ نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يؤاخي صاحب سُنَّة يحمله عليها».

وعن سفيان الثوري قال: «استوصوا بأهل السُّنَّة خيرًا فهم غرباء».

وقال ذو النون المصري: «من علامة حب الله متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وهديه وسُنَّته».

قلتُ: وأقوال السلف السابقة لقول ذي النون رَحِمَهُ اللهُ وإن كانت أصلاً في الحث على اتباع عقيدة أهل السُّنَّة وترك اعتقاد أهل البدع إلا أنَّ اتباع السُّنَّة أيضًا عصمة ونجاة في علم السلوك.

فإذا عرضت على نفسك أقوال السلف هذه وغيرها في لزوم السُّنَّة فصبرت - ولو عند الفتور - كان ذلك علامة الخير، فإن ونت فاعلم أنَّ ما ادعته النفس من محبة السُّنَّة - وإن كانت متمسكة ببعض السنن - غير كامل، ولتعلم كذلك بأنَّ نفسك كسولة، وأنَّ احتجاجها على تركها لقيام الليل وغيره بأنَّها غير زاهدة ولا ينفع القيام لغير الزاهدين - غير صحيح بل هو كسلها وإلا فترك سنة واحدة أفضل من ترك سُنَّتَيْن، وليس علاج الرغبة في الدنيا بترك القيام وترك محاولة التدبر للقرآن، فافهم هذا، وانتبه له.

وزد من همّتها بهذه البشارات:

فعن عبد الله بن عمرو أنّه قال: «خَيْرُ أَعْمَلِهِ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِثْلِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَأَنَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهْمُنَا الْآخِرَةُ وَلَا تَهْمُنَا الدُّنْيَا، وَإِنَّ الْيَوْمَ مَالَتْ بِنَا الدُّنْيَا»، فكيف بزماننا نحن؟؟!

وروى ابن ماجه وصححه الألباني - رحمهما الله - أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ؛ الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ... أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟! قال: «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».

تنبيه: قد أفاض الشيخ محمد بن إسماعيل حفظه الله في كتاب «علو الهمة» بذكر ما تعلو همة المرء بقراءته، فينبغي للسالك أن يكثر من قراءته خاصة عند أوقات الفتور.

واحذر من تسويضا:

واعلم أنّك كلّما توانيت وكسلت كلّما صعبت عليك معاودة السلوك، ولقد أحسن مَنْ قَالَ: «إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالِ عَلَى وَجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رَعُونَاتِ النَّفْسِ».

وبارك الله في د/ خالد أبو شادي؛ إذ قال: «فالعجل العجل... والبدار البدار، فما بسقت فروع ندم إلا من بذرة كسل، ومن ملّ الحركة حُرِمَ البركة، ومن أضاع الفرصة تجرّع الغصة، ومن أجل أمره إلى الغد لم يفلح إلى الأبد، وما حُرِمَ مبادر إلا في النادر».

وسر عن قريب واستجب واجتنب (غدا)	وشمر عن الساق اجتهدا بنهضة
وكن صارماً كالسيف فالموت في (عسى)	وإياك (مهلاً) فهي أخطر علة
وجذ بسيف العزم (سوف) فإن تجذ	تجد خيراً فالنفس إن جذت جذت

وَعِظْهَا بِكَلَامِ ابْنِ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَوَاقِبِ الدُّنْيَا أَخَذَ الْحَذَرَ، وَمَنْ أَيْقَنَ بَطُولَ الطَّرِيقِ تَأَهَّبَ لِلْسَفَرِ، مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ يَا مَنْ يُوقِنُ بِأَمْرِ ثُمَّ يَنْسَاهُ، وَيَتَحَقَّقُ ضَرَرَ حَالٍ ثُمَّ يَغْشَاهُ ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الْحَزْبُ: ٣٧)، تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ عَلَى مَا تَظُنُّ، وَلَا تَغْلِبُهَا عَلَى مَا تَسْتَيْقِنُ، أَعْجَبَ الْعَجَائِبُ: سُرُورُكَ بِغُرُورِكَ، وَسَهْوُكَ فِي لَهْوِكَ، وَغَفْلَتُكَ عَمَّا قَدْ خَبِيَ لَكَ.

مَنْ عَايَنَ بَعِينَ بِصِيرَتِهِ تَنَاهَى الْأُمُورَ فِي بَدَايَاتِهَا نَالَ خَيْرَهَا، وَنَجَا مِنْ شَرِّهَا، وَمَنْ لَمْ يَرِ الْعَوَاقِبَ غَلِبَ عَلَيْهِ الْحَسُّ، فَعَادَ عَلَيْهِ بِالْأَلَمِ مَا طَلَبَ مِنْهُ السَّلَامَةُ، وَبِالنَّصَبِ مَا رَجَا مِنْهُ الرَّاحَةُ... وَيَبَيِّنُ هَذَا... أَنْكَ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ عَصِيَّتَ اللَّهِ فِي عَمْرِكَ، أَوْ أَطَعْتَهُ، فَأَيْنَ لَذَّةُ مَعْصِيَتِكَ؟ وَأَيْنَ تَعَبُ طَاعَتِكَ؟ هِيَ هَاتِ... رَحِلْ كُلُّ بِمَا فِيهِ! فَلَيْتَ الذُّنُوبَ إِذَا تَخَلَّتْ خَلَّتْ... وَأَزِيدُكَ فِي هَذَا بَيَانًا مِثْلَ سَاعَةِ الْمَوْتِ، وَانْظُرْ إِلَى مَرَارَةِ الْحَسَرَاتِ عَلَى التَّفْرِيطِ، وَكَيْفَ اسْتَحَالَتْ حَلَاوَةُ اللَّذَاتِ حَنْظَلًا، فَبَقِيَتْ مَرَارَةُ الْأَسَى بِلا مَقَاوِمَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَمْرَ بِعَوَاقِبِهِ، فَرَاقِبِ الْعَوَاقِبَ تَسْلَمَ، وَلَا تَمَلْ مَعَ هَوَى الْحَسِّ فَتَنْدَمَ» (انْتَهَى مِنْ صَيْدِ الْخَاطِرِ).

الصفة الرابعة- أَدْنَاهَا بِطَبِيعَتِهَا مَلُولَةٌ لَا تَقِيْمُ عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ:

وَلِذَا يَصِيبُهَا الْفُتُورُ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» (رَوَاهُ ابْنُ حِبَانَ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

وَالْفُتُورُ يَخْتَلِفُ عَلَى حَسَبِ دَرَجَةِ الْإِيمَانِ كَمَا أَخْبَرَ ابْنَ الْقِيَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «كِتَابِ الْفَوَائِدِ» بِقَوْلِهِ: «مِنْهَا مَا يَكُونُ سَرِيعَ الْحَصُولِ سَرِيعَ الزَّوَالِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَرِيعَ الْحَصُولِ بَطِيءَ الزَّوَالِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَطِيءَ الْحَصُولِ بَطِيءَ الزَّوَالِ».

ومن رحمة الله أن لوّن الطاعات فتتقلب بينها النفس المؤمنة، فلا يفتر عزمها، ولا يكلُّ سعيها.

قال الإمام مالك: «إن الله قسّم الأعمال كما قسّم الأرزاق، فربّ رجلٍ فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الجهاد، فنشر العلم أفضل أعمال البر، وقد رُضيتُ بما فُتِح لي فيه».

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومراضيه سبحانه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلّها طرق مرضاته، فهذه من رحمة الله وحكمته لا اختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلاّ واحدٌ بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوّعت الطرق؛ ليسلك كل امرئٍ إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله» (انتهى من طريق المهجرتين بتصرف يسير).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والناس يتفاضلون في هذا، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال العجّال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (البَقَرَةُ: ١٦)، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدّم المرء ما كان أرضى الله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل منه أفضل ممّا يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقاً إذا كان متعذّراً في حقه أو متعسّراً يفوّت عليه ما هو أفضل له وأنفع» (انتهى من الفتاوى بتصرف يسير).

ومن رحمته سبحانه كذلك أن جعل عاقبة الصبر في أوقات الفتور زيادة الإيمان.

يقول ابن القيم: «تخلل الفترات للسالكين أمرٌ لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقارنة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم رُجي له أن يعود خيرًا مما كان».

ومن رحمته كذلك أنه ينبه العبد بابتلائه بالفتور على عظيم نعمته عليه بهدأيته، قال بعض الحكماء: «رُبَّما وردت عليك الظلم، ليعرفك قدر ما منَّ به عليك».

فائدة:

يقول د/ خالد أبو شادي حَفَظَهُ اللهُ: «النفْسُ ملولة والمواظبة على الأعمال الصالحة يحتاج منها إلى قوة وصبر، ولهذا ربطت كثيرٌ من الأحاديث بين المواظبة على الأعمال ودخول الجنة، كحديث: «خلصتان لا يحافظ عليهما عبدٌ مسلمٌ إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله في دبر كل صلاة عشرًا ويحمده عشرًا ويكبره عشرًا، ويكبر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين ويسبح ثلاثًا وثلاثين» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وكحديث: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار»، وكحديث: «من ثابر على اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة بُني له بيتٌ في الجنة» فثمن الجنة ليس برخيص بل هو في المحافظة الدائمة، وليس بمجرد عمل يومٍ أو يومين أو شهرٍ أو شهرين، فالصبر على العمل والمواظبة عليه يقابلها الله بأعظم الجزاء لصعوبتها على النفس وانقطاع أكثر الناس عنها» (انتهى بتصرف).

وقال أيضًا حَفَظَهُ اللهُ: «ودواء الملل إما أن يكون تناول دواء آخر وعدم التركيز على دواءٍ واحدٍ فحسب، وإما بالترفيه عن النفس بشيءٍ من المباح مستصحبًا معه نية صالحة».

قلتُ: ومن أفضل الطرق لعلاج الفتور كذلك زيارة الإخوان في الله، وصلة الرحم، فهما من أفضل الأعمال الصالحة، وكذا الخروج إلى المقابر كما ورد عن بعض السلف: «أنه كان إذا أصابه فتور زار المقابر، فيعود مجتهدًا».

تنبيهه: قد تكلمت بحمد الله على الفتور بشيء من التفصيل في كتاب «تهذيب النفوس»، فليراجعه من أراد.

الصفة الخامسة- الاستعجال؛

وقد قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، وقال أيضًا: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ﴾ (الإنشراء: ١١).

يقول الغزالي رحمه الله في «منهاج العابدين»: «فإن الاستعجال هو الخصلة المفوتة للمقاصد، الموقعة في المعاصي، وإن منها تبدو آفات أربع:

إحداها- أن يقصد العابد منزلة في الخير والاستقامة ويجهتد، فربما يستعجل في نيلها، وليس ذلك بوقتها، فإما أن يفتر ويسأس، فيترك الاجتهاد، فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في الجهد وإتاعب النفس، فينقطع عن تلك المنزلة، فهو بين إفراط وتفریط، وكلاهما نتيجة الاستعجال، وفي المثل السائر «إن لم تستعجل تصل».

وقال القائل:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلُّ

الثانية- أن يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويحدّ، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها؛ فيفتر ويسأس ويترك الدعاء؛ فيحرم حاجته ومقصوده.

الثالثة- أن يظلمه إنسان فيغيظه، فيعجل في الدعاء عليه، فيهلك مسلم بسببه، وربما يتجاوز عن الحد، فيقع الداعي في معصية وهلاك، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ بِالْأَشْرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ﴾ (الإنشراء: ١١).

الرابعة- أن أصل العبادة وملاكمها: الورع، وأصل الورع: النظر البالغ في كل شيء، والبحث التام عن كل شيء هو بصده، من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل، فإن كان

المرء مستعجلاً في الأمور غير متأن ولا متثبت ولا متبين - لم يقع منه توقف ونظر في الأمور كما يجب، ويتسارع إلى كل كلام فيقع في الزلل، وإلى كل طعام فيقع في الحرام والشبهة، وكذلك في كل أمر؛ فيفوته الورع، وأي خير في عبادة بلا ورع!!» (انتهى كلامه بتصرف يسير).

قلت: ويتعلق بصفة استعجالها ضعف اليقين عند النفس - إلا من رحم الله - فهي تنظر إلى الواقع المادي المحسوس، ويغيب عنها الغيب البعيد، ومن آثار ذلك شح العبد وبخله بالصدقة، فهو يراها منقصة للمال الحاضر بين يديه، ويغيب عنه أنها نداء للمال وزكاة له، وكذا جنبها عن الجهاد، فهي تراه فواتاً للحياة الحاضرة، ويغيب عنها أنه سبب لدوام الحياة؛ فإن الشهيد لا يموت، كما أن الجهاد لا يقدم من أجل العبد، فموته في سبيل الله أولى من موته على فراشه ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿ (الْعَنْكَرَانِ: ١٥٧، ١٥٨).

وكذا مسارعتها إلى هواها من شهوات محرمة ومباحة تشغل عن عمل الآخرة نظراً إلى سعادة الوقت، ويغيب عنها ثواب الآخرة وعقابها.

وكذا طلبها لما تراه نافعاً وحرصها عليه والإصرار على نيله، مع أنه ربما كان فيها هلاكها قال العجالي: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ١١)، وأما المؤمن المحسن، فإنه يفوض أمره إلى الله ليختار له ما فيه مصلحته؛ فإن الله أرحم بعبدته المؤمن منه بنفسه، وهو سبحانه أعلم بالخير.

وكذا تسرعها بالكلام دون أن تنظر قبل التحدث به إلى المصلحة والمفسدة منه.

قال أبو الدرداء: «من فقه الرجل قلة كلامه فيما لا يعنيه».

وقال الحسن: «كانوا يقولون: لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه، ولسان المنافق أمام قلبه».

وقال بشر بن الحارث: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل».

وقال عمر بن الخطاب: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ».

الصفة السادسة- أُنْهَا تَسْعِدُ بِمَدْحِ النَّاسِ لَهَا:

ولذلك تحب أن يعلم العباد بطاعتها لله ليمدحوها، وقد تترك المعصية أمام الناس لئلا يذمّوها.

ولذا أيضًا تظلّ تذكر كلمات المديح وترددها على مسامعها في الغدو والرواح.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الْإِحْيَاءِ»: «اعلم أن حب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأول: وهو الأقوى: شعور النفس بالكمال، فإن الكمال محبوب، فمهما شعرت به النفس ارتاحت واعتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، ويندفع ذلك عن قلب الممدوح بعلمه بأن المادح غير صادق في قوله، ثم إنه يعلم من حال نفسه خلاف ما ذكره المادح» (انتهى الغرض المقصود منه).

قلت: أكبر سبب لزوال فرح الممدوح بمدحه إدمانه لذكر سيئاته، وتقصير نفسه، وهفواته وغدراته، حتى يمقت حال نفسه في الله، فإذا استشعر ذلك لم يكد يفرح بمدح الناس له، كمن رسب في امتحانٍ من امتحانات الدنيا وأخبر الناس بنجاحه ليخفي فشله، فصار الناس يمدحونه ويصفونه بالتفوق، فهل يفرح بمدحهم؟ أم لعلمه بحقيقة حاله لا يفرح بقولهم؟

فائدة:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَاب «الإحياء»: اعلم أنَّ الرياء قد يكون أخفى من ديبب النمل مستبطناً في النفس، وأجلى علاماته فرح المرء باطلاع الناس على طاعته وسروره بذلك، فلولاً التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاعهم على عمله، وأخفى منه أن يتخفى المرء بعمله، ولا يريد الاطلاع ولا يُسرُّ بظهور طاعته، ولكنه إذا رأى الناس أحب أن يبدؤه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، كأنه يتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها، ولولا هذه الطاعة لما استبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد سلم من وجود الرياء (انتهى بتصرف).

قلت: إن كان فرح المرء باطلاع الناس على طاعته من أجل مدحهم له وثنائهم عليه، فهذا مذموم وهو علامة الرياء الخفي في قلبه، وأمّا إن كان فرحه بذلك من أجل خوفه على نفسه لسوء عمله، فهو يرجو أن يشهدوا له يوم القيامة بالخير، ويشهدوا له عند موته بالخير فيغفر الله له من أجل شهادتهم، فهذا أمرٌ مشروع، ففي الحديث: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أبيات من جيرانه بالخير إلا قال الله: قد قبلت شهادتكم وغضرت له ما لا تعلمون»، وفي آخر: «ما من مسلم يشهد له ثلاثة - أي بالخير - ، إلا وجبت له الجنة»، قيل: واثنان؟ قال: «واثنان» (رواه الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع)، وقد صحَّ أن الرسول ﷺ سئل عن الرجل يعمل العمل فيطلع عليه الناس فيفرح بذلك؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»، ففارق بين من يفرح إحساناً للظن بالله الذي نشر له الجميل في الدنيا وستر عليه القبيح رجاء أن يعامله يوم القيامة هكذا، وهو مع ذلك يرى نفسه مسيئاً مقصراً في حق الله، لسان حاله يقول: «اللهم اغفر لي ما لا أعلمون، ولا تفتني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون»، كما صحَّ من قول أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما مدحه البعض، فارق بين هذا وبين من يفرح لمدح الناس له إذا اطلعوا

على عمله ويرى نفسه أهلاً لذلك مستحقاً له، فمدار الأمر إذاً على نظرة المرء لنفسه هل يراها أهلاً للمدح والثناء أم يراها مقصرةً مسيئةً، ويرجو من مدح الناس له أن يشهدوا له عند موته فيغفر الله له لشهادتهم له، ويعفو عنه ويصفح؟

ومثل هذا من يرجو في حياته من الله أن يكون له ثناءً حسنٌ بين الناس بعد موته عسى أن يكون مدحهم له وثناءؤهم عليه سبباً للترحم عليه والاستغفار له، فينال المغفرة من الله، كما قال إبراهيم: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٨٤)، فارق بين هذا، وبين من يرجو في حياته أن يمدحه الناس بعد موته وأن يشنوا عليه تعظيماً منه، وتفاهراً، فهو يرى نفسه أهلاً لذلك مستحقاً له، وهذا ما قال عنه السلف: «ليتق الله أحدكم أن يكون مرئياً وهو في قبره، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يقول: إذا متُّ قال الناس عني: قد كان، قد كان».

فائدة:

ويعين العبد على الإخلاص علمه بأن الله لن يقبل عمله إلا إذا أخلص فيه، فعمل المرائي حابطٌ قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي الحديث: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك».

ويعين العبد على الإخلاص كذلك علمه بأن ما أراد من شهرة بين الناس لا يكون إلا بإخلاصه، فهذا نحن إلى يومنا هذا نذكر أحوال وأقوال المخلصين ونثني عليهم خيراً كسفیان الثوري وابن عيينة والأئمة الأربعة والبخاري ومسلم وأصحاب السنن وابن المبارك والفضيل بن عياض وبشر بن الحارث وداود الطائي وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والذهبي والنووي وابن قدامة وابن حجر وغيرهم، وما كان ذلك إلا لإخلاصهم لله، وكذا أخبار المرءين مازالت يحكيها الناس

مع ذمهم لأصحابها، وما أصدق الأثر الإسرائيلي «أوحى الله إلى نبي من الأنبياء: أن قل لقومك: يخفوا أعمالهم لي وعليّ إظهارها لهم».

ويعينه على الإخلاص أيضًا علمه بمغبة الرياء، فهو من الكبائر، وقد ذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ثلاثة تُسْعَرُ بهم النار وهم: «قارئ للقرآن ومجاهد ومتصدق» إنّا فعلوا هذه الصالحات ليمدحوا بين الناس كما رواه مسلمٌ، فكيف بغيرهم من المراءين؟ ويعينه كذلك على الإخلاص اتهامه لنفسه؛ فإن الأصل عدم إخلاصها، وطلبها لمدح الناس، فلا يزال شاكًا في أمرها داعيًا الله بإصلاح نيتها وحالها، وإلا فلا صلاح للنفس إلا بالله وحده لا شريك له، وقد قال بعض السلف: «من قال أنا مخلص فهو مرءي»، وقال آخر: «ليس شيء أعزّ من الإخلاص؛ لأنّ النفس ليس لها فيه نصيب».

ويعينه كذلك على الإخلاص إخفاؤه لعمله الصالح وكذا اطلاعه على أقوال السلف وأحوالهم كيف حرصوا على كتمان حسناتهم وكيف خافوا من مدح الناس على أنفسهم؟؟

قال بعض الحكماء: «استشراكك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليلٌ على عدم صدقك في عبادتك».

وقال الغزالي في «الإحياء»: «لا دواء للرياء مثل الإخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر العبد عليه مدةً بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك».

وقال بعض السلف: «اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك».

وقيل للإمام أحمد: إن الناس يدعون لك؟ فبكى وقال: «أخشى أن يكون استدراجًا» وقال له رجلٌ: رأيت في المنام أنك من أهل الجنة فقال: «قد كان يُقال لفلان، ويُرَى له مثل هذا ثم خرج إلى قتال الناس وسفك الدماء».

الصفة السابعة - أذنها معجبة برأيها وعملها:

ولذا لا تكاد تقبل النصح من الآخرين - ولو كان بالحق - بل تردّه، وربما جادلت لتثبت صحة مذهبها ورأيها واعتقادها الخاطئ مع أنّ هذا الخلق - أعني الجدل - مذموم، ولو كانت النفس محقةً إذا كان الغرض منه الانتصار للنفس، وبيان صحة رأيها، فكيف وهي محقوقة؟ قال الغزالي: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

وقال الغزالي: «العُجْب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنع».

وقال المحاسبي: «العُجْب هو حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان أنّ النعم من الله.

وقال ابن المبارك: «العجب أن ترى أنّ عندك شيئاً ليس عند غيرك».

والنفس لجهلها ترى نفسها - لعملٍ صالحٍ أو عملين - أنّها على خيرٍ عظيمٍ تستحق عليه الثواب من الله والإكرام من الناس، فإذا بها تسخط على بلاء الله، ولسان حالها يقول: «كيف يبتلى مثلي وأنا من عمل كذا وكذا»، وتلوم الناس على تقصيرهم في حقها، وعدم تعظيمهم لها، ولسان حالها يقول: كيف لا يعرفون قدري وقد فعلت من الصالحات كذا وكذا».

وكذا ترى رأيها هو الصواب الذي لا ينبغي لأحد أن يكون له رأيٌ غيره، ولا أن يخالفه أو يعترض عليه.

وكذا ترى نفسها أهلاً للنعم والخير، ولسان حالها - كقارون - يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨)، فأين هذه الجاهلة بربها وبنفسها من الحسن البصري القائل: «ليس لأمثالنا نوافل، إنّما النوافل لمن كملت فرائضه»، ومطرف بن عبد الله القائل

وهو بعرفة مع الحجيج: «اللهم لا تردّهم من أجلي»، وعطاء السلمي القائل - لما رأى الغلاء بالأسواق: «كلُّ هذا بسبب ذنوب عطاء، لو مات عطاء لاستراح الناس».

مثل المعجب في إعجابه مثل الواقف في رأس الجبل
يبصر الناس صغاراً وهو في أعين الناس صغيراً لم يزل

وقد كثر تحذير السلف من هذا الداء الخطير الذي إذا تمكّن من العبد أهلكه، فعن أبي سليمان الداراني أنّه قال: «من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الطاعة». وقال يحيى بن معاذ: «كلُّ من ادّعى درجةً سقط منها».

وقال عبدة بن أبي لبابة: «أقرب الناس من الرياء آمنهم منه» وإنّما أمن لإعجابه بنفسه.

وقال الحسن البصري: «كنا نُحدّث أنّ من عيّر أخاه بذنبٍ قد تاب منه ابتلاه الله به».

وقال سلمة بن دينار: «اعلم أنّك إذا مت لم ترفع الأسواق بموتك، إنّ شأنك صغير، فاعرف نفسك».

وقال سري السقطي: «لو أنّ رجلاً دخل بستاناً فيه من كل الأشجار والأطيار، فناداه كلُّ طائرٍ بلغته: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت إلى هذا نفسه لكان أسيراً في أيديها».

فما أقرب حال المعجبين بحال الرجل الذي قال وهو جالسٌ عند ابن مسعود: «ما أحبُّ أن أكون من أصحاب اليمين بل أكون من المقربين أحبُّ إليّ»، فقال ابن مسعود: «ولكن هاهنا رجلٌ ودّ أن لو مات لم يُبعث... يعني نفسه».

فائدة:

ويعين العبد على التواضع وعدم الإعجاب بنفسه اطلاعه على قول رسولنا

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تعجبوا بعملٍ عاملٍ حتى تروا به يُختم له» (رواه الطبراني وصححه

الألباني في صحيح الجامع)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» فمن أدراك - يا مسكين - أنك تموت على الإسلام أو الإيذان أصلاً؟؟ فالواجب الحذر والخوف ودوام التضرع إلى الله بحسن الخاتمة!! وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

ويعينه كذلك إيمانه التفكير في سيئاته ونقصان أعماله عن الكمال، فهل خشع في صلاته أو تدبر القرآن أو أتم حق الصيام؟؟

ويعينه كذلك الاطلاع على أحوال المجتهدين في العبادة ليعلم كسله وقلة عمله، وقد قالوا: «إذا ذكرت أحوال السلف بيننا، افتضحنا كلنا».

وكذا اطلاعه على أقوال السلف في التحذير من العجب وكيفية التخلص منه، وعن الشافعي أنه قال: «إذا خفت على عملك العجب فاذكر رضى من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله».

وقيل لبعض السلف: «ما أكثر ما ترجو من عملك؟ فقال: يأسي من جلّ عملي»، وقال آخر: «من رأى لنفسه قيمة، لم تكن له قيمة» وقد حطّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ بَيْتٍ للعجب شيّده المعجب الجاهل بقوله: «واعلموا أنه لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته».

(رواه البخاري ومسلم)

وأقول للمعجب: من أدراك أن عملك الذي أعجبت به قد قبله الله منك، وقد قَالَ الْعَالِي: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، وإعجابك هذا دليلٌ على أنك لست من المتقين، فبأي شيء تعجب!!

ويقول المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من صارت نفسه تؤدي بعض الطاعات بسهولة ويسر، لا يعني ذلك أن صاحبها قد آمن منها، بل هي كالأسير الذي كان يحاول الفتك بالمرء،

فقهره وأسره فصار طوع أمره، فهل يأمن بعد ذلك له؟ أم أنه ينتظر التفاتة من أسره لينقض عليه؟».

وقال الماوردي: «من أغفل تأديب نفسه تفويضًا إلى العقل أو توكلًا على أن تنقاد إلى الأحسن بطبعها: أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائين».
(أدب الدين والدنيا / ٢٢٦)

وقال أحد الحكماء: «لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك تذكره، ويُحتقر عندك وجوده».

وقال ذو النون المصري: «طوبى لمن أنصف ربه عز وجل. قيل: وكيف ينصف ربه؟ قال: يقرُّ له بالتقصير في طاعته، وبالجهل في معصيته، وإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن غفر له رأى فضله، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره ظالمًا لما معه من الآفات، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات».

وقال د/ خالد أبو شادي: «قد جبلت النفس على إحسان الظنِّ بحالها، وتركية عملها، ولا يتم شفاء أو يؤثر دواءٌ إلا باستصغار عملك الصالح ورؤيته صغيرًا في جنب الله، وقد قيل: الإحساس بالتقصير أولى درجات الكمال» (انتهى من كتاب: رُدِّيْ رُوحِي).
ويعين العبد على التخلص من العجب كذلك صحبتُه لأهل الاجتهاد في طاعة الله ليرى نفسه بينهم مقصِّرًا بخلاف ما لو صحب أهل الغفلة والبطالة.

ينبغي للداعية الذي ينصح الناس في درسٍ أو خطبة، وكذا القارئ للقرآن يؤمُّ به النَّاس أن يكونوا دائمي الحذر من العجب، وليكن الأصل عندهم أنَّ النفس متهمه في إخلاصها وطلبها لرضا الله، فهي تسعى لنيل حظها ومرادها من مدح الناس وثنائهم، فلا أقل من عدم ثقتهم فيها أو رضائهم عنها، وليكن ديدنهم دوام التضرع إلى الله بطلب الإخلاص، وأن يرزقهم كراهية الشهرة.

وليعلموا أنَّ كراهيتهم لسماع حب الناس وثنائهم على من يدعو إلى الله مثلهم أو يؤمّ الناس دليلٌ على عدم إخلاصهم وعلى حبهم للشهرة، كما أنَّ فرح قلوبهم بمدح الناس لهم وطلبها لذلك دليلٌ قاطعٌ في دعواهم للإخلاص، إلّا من كان فرحه بذلك من أجل نيلهم لصالح دعواتهم التي يرجون معها مغفرة الله لتقصيرهم، والفارق بين الحاليين كالشجرة، ولا يكاد ينتبه له إلّا صديق.

الصفة الثامنة- أَذْهًا إِذَا أَطْعَمْتَ طَمَعْتَ، وَإِذَا آيَسْتَهَا آيَسْتَ، وَإِذَا أَقْنَعْتَهَا قَنَعْتَ، وَإِذَا أَرَخَيْتَ لَهَا طَغَتْ، وَإِذَا فَوَضْتَ لَهَا أَسَاءَتْ، وَإِذَا حَمَلْتَهَا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ صَلَحَتْ^(١) :

فلا بد من العزم والهمة في سوق النفس إلى طريق الصلاح، والحذر الحذر من التهاون والضعف في ذلك؛ فإنّ النفس إذا (عوّذتها تتعود).

يقول د/ خالد أبو شادي: «إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنّه لا يدرك المفاخر من كان في الصف الآخر، العلم لا يحصل إلّا بالنّصب، والمال لا يُجمع إلّا بالتعب، واسم الجود لا يناله بخيل، ولا يجوز أحدٌ لقب الشجاع إلّا بعد جهدٍ طويل» (من سباق نحو الجنان).

حتى متى وإلى متى تتوانى؟ وتعبٌ من كأس الهوى ألواناً
والموت يطلبنا حثيثاً مسرعاً إن لم يزرنا بكرةً مساناً
إنا لنوعظ بكرةً وعشيةً وكأنما يُغنى بذاك سواناً
وَقَالَ الْعَالِي: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ .

(الكهف: ٢٨)

(١) أفاد ذلك الآجري رحمه الله في كتاب: «أدب النفوس».

قال أبو الجوزاء: «فُرْطًا: أي تسويًا».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي «كتاب التبصرة»: «إنما مرض القلوب من الذنوب، وأصل العافية أن تتوب، تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعملها العسل في علل الأجساد، مواعظ القرآن لأمراض القلوب شافية، وأدلة القرآن لطلب الهدى كافية، أين السالكون طريق السلامة والعافية، مالي أرى السبل من القوم عافية (أي: خالية)!

✽ اجتهد في تقوية يقينك قبل خُسْر موازينك، وقم بتضرعك وخفيتك قبل نشر دواوينك، وابدل قواك في ضعفك ولينك، قبل أن يدنو العذاب فتجد مسّه ﴿وَيَحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ﴾ (العنكبوت: ٢٨)، لَمَّا سَمِعَ الْمُتَيْقِظُونَ هَذَا التَّحْذِيرَ فَتَحُوا أَبْوَابَ الْقُلُوبِ لِنَزُولِ الْخَوْفِ، فَعَاشَتْ الْيَقِظَةُ بِمَوْتِ الْهَوَى، وَارْتَفَعَتِ الْغَفْلَةُ بِحُلُولِ الْهَيْبَةِ، وَانْهَزَمَ الْكَسَلُ بِجَيْشِ الْحَذَرِ، فَتَهَذَّبَتِ الْجَوَارِحُ مِنَ الزَّلَلِ، وَالْعِزَائِمُ مِنَ الْخَلَلِ، فَلَا سَكُونٌ لِلْخَائِفِ وَلَا قَرَارٌ لِلْعَارِفِ، كَلِمَا ذَكَرَ الْعَارِفُ تَقْصِيرَهُ نَدِمَ عَلَى مَصَابِهِ، وَإِذَا تَصَوَّرَ مَصِيرَهُ حَذَرَ مِمَّا فِي كِتَابِهِ.

✽ حَقِيقٌ بِمَنْ عِلْمٌ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَيَقَّنُ أَنَّ الْعَمَلَ يُحْصَى عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الرَّحِيلِ عَمَّا لَدَيْهِ، إِلَى مَوْقِفٍ صَعْبٍ يُسَاقُ إِلَيْهِ، حَقِيقٌ بِهِ أَنْ يَتَجَانَى عَنْ مُضْطَجَعِ الْبَطَالَةِ بِجَنْبِيهِ.

✽ إِذَا تَبَتَ مِنْ ذُنُوبِكَ فَانْدَمَ عَلَى عَيُوبِكَ، وَأَمُحْ بِدَمْعِكَ قَبِيحَ مَكْتُوبِكَ، وَابْسُ جَلْبَابَ الْفَرْقِ، وَتَضَرَّعْ عَلَى بَابِ الْقَلْقِ، قَفْ وَقُوفِ الْمُنْكَسِرِينَ، وَتَبْتَ تَبْتَ الْمَعْتَذِرِينَ، وَاسْتَشْعِرِ الْخُضُوعَ، وَاسْتَجْلِبِ الدَّمْعَ.

✽ اللَّهُ دَرُّ أَقْوَامٍ بَادَرُوا الْأَوْقَاتَ، وَاسْتَدْرَكُوا الْهَفْوَاتَ، فَالْعَيْنُ مَشْغُولَةٌ بِالْذَّمِّ عَنْ الْمَحَرَّمَاتِ، وَاللِّسَانُ مَحْبُوسٌ فِي سَجْنِ الصَّمْتِ عَنْ الْهَلَكَاتِ، وَالْكَفُّ قَدْ كُفَّتْ بِالْخَوْفِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَالْقَدَمُ قَدْ قِيدَتْ بِقَيْدِ الْمَحَاسِبَاتِ، وَاللَّيْلُ لَدَيْهِمْ يَجَارُونَ فِيهِ

بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فتيقظ للحاقهم من هذه الرقعات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات.

❁ أسفًا لعبدٍ كلما كثرت أوزاره قلَّ استغفاره، وكلما قرب من القبور قوي عنده الفتور، فله دُرُّ أقوام بذلوا المال ومالوا إلى السخاء، وطرقوا باب الفضل بأنامل الرجاء، وتلمَّحوا وعد الصادق بجزيل العطاء، وتأهبوا للحضور يوم اللقاء، أناخوا بباب الطبيب طلبًا للشفاء، وصبروا - رجاء العافية - على شرب الدواء، فإن ابتلوا صبروا، وإن أعطوا شكروا، فالأمر على السواء، تالله لقد شغلهم حبه عن الآباء والأبناء.

تفكروا إخواني في أهل الفساد وفي أهل الصلاح، وميزوا أهل الخسران من أرباب الأرباح، فيا سرعان عُمُر يفنيه المساء والصبح، فتأهبوا للرحيل فيا قرب السراح، وتفكروا فيمن غرته أفراخ ومراح، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح، فالهوى ليلٌ مظلمٌ، والفكر مصباحٌ» (انتهى الغرض المقصود من كلامه وقد جمَّعته من مواضع متفرقة).

إخواني... يئسوا أنفسكم من الغفلات والزائد من الشهوات.... وطمَّعوها في فسيح الجنَّات.... وسعادة الطاعات.... وأقنعوها بلزوم سلوك الطريق.... ولا تثقوا في تسويقها.... وفوضوا أمرها إلى الرحيم الرفيق.... الأمرُ جدُّ خطير.... فخاب من تهاون وغفل.... وفاز كلُّ مُفِيق....

قال بعض السلف: «من خلا قلبه من ذكر أخطارٍ أربعة فهو مغتر، فلا يأمن الشقاء:

خطر يوم الميثاق حيث قالَ الْجَلِّي: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا

أبالي، ولا يعلم في أي الفريقين كان؟

حين كان في بطن أمه، فنودي الملك بالشقاء والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء

هو أم من السعداء؟

ذكر هول المطلع، ولا يدري أيبشر برضا الله أم بسخطه؟

يوم يصدر الناس أشتاتاً ولا يدري أي الطريقين يسلك به؟

فمحقوق لصاحب هذه الأخطار ألا يفارق الحزن قلبه (١) .

الصفة التاسعة - أذها تحب استمالة القلوب إليها:

لذا تحب مدح الناس وثناءهم عليها، وكذا تحب اطلاعهم على عملها الصالح ليمدحوها ويحبوها بسببه.

وكذا تكثر من الشكوى وذكر الأمراض والعلل بها ليعطف الناس عليها، ويمنحوها عطفهم.

وعلاج ذلك أن تطلع على أقوال السلف وأحوالهم لترى كيف حرصوا على كتمان حسناتهم، وكيف خافوا من مدح الناس لهم، وكيف حرصوا على كتمان مصائبهم وعدم الشكوى إلا إلى الله.

أمّا أقوال السلف وحرصهم على كتمان الحسنات، وخوفهم من المدح، فقد مضى طرف منه.

وأمّا كتمان الشكوى إلا إلى الله، فعن بعضهم أنه قال: «الاستراحة إلى الدواء خير من الاستراحة إلى الإفشاء» يعني أن أخذ الدواء مشروع فهو أفضل من الشكاية إلى الناس فهي توحى بعدم الصبر.

وقال آخر: «مَنْ بَثَّ (أي: اشتكى) لم يصبر».

وعن الفضيل أنه قال: «أشتهي مرضًا بلا عَوَادٍ» يقصد أنهم قد يحوجونه إلى التحدث عمّا به وهو لا يريد ذلك رضا منه بقضاء الله وقدره.

وفي الأثر: «إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظروا ما يقول لعَوَادِهِ، فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له، وإن شكّا وذكر شرًّا قالوا كذلك تكون».

وقال شقيق البلخي: «من شكى مصيبته إلى غير الله (أي: على وجه الجزع) لم يجد في قلبه حلاوة الطاعة أبدًا (أي: إلا أن يتوب)».

وقال كعب الأحبار: «كانوا يكرهون التحذيف، قيل: وما التحذيف؟ قال: يصبح الناس بخير فيُسئلون؟ فيزعمون أنهم بشر».

وقال عبيد بن عمير: «الجزع القول السيء والظن السيء» أي: يظن بالله شرًّا.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي «الإحياء»: «وإظهار المرض والإخبار به لا بأس به إذا صحت به النية والمقصد، ومقاصد الإظهار ثلاثة:

الأول- أن يكون غرضه التداوي، فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره في معرض الحكاية لا في معرض الشكاية.

الثاني- أن يصف لغير الطبيب ويكون ممن يُقتدى به ليصبر غيره كما ورد في الصحيح أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: وارأساه، فقال الرسول: بل أنا يا عائشة وارأساه».

وعن الحسن البصري أنه قال: «إذا حمد الله المريض وشكره ثم ذكر وجعه لم يكن ذلك شكوى».

قلت: بشرط أن يكون حمده من قلبه لا بمجرد اللسان، وأن يكون إخباره على وجه الحكاية لا الشكاية.

الثالث- أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز» (انتهى كلامه بتصرف).

قلت: ويعين العبد على صبره وعدم شكايته أو اعتراضه على قضاء الله نظره إلى ثواب البلاء واطلاعه على سير السلف ليقتدي بهم، وكذا حذره من مغبة الاعتراض أو الجزع على قضاء الله، وكذا يقينه في حسن اختيار الله له وأنه يتلييه لمصلحته هو، وكذا نظره في سيئاته وعلمه باستحقاق العقوبة.

وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢١٥): «ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله أكثر».

وفيها برقم [٢٢٠٦]: «ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء».

وفيها برقم [١٨٢١]: «الحمى حظ المؤمن من النار يوم القيامة».

وفيها برقم (١٥٩٩): «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتلي به ما يكره حتى يبلغه إيها».

المصفة العاشرة- أنها لا تترك الذنوم إلا لخوف مزعج أو شوق مقلق؛

قَالَ تَجَالَى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (النِّجَارَةُ: ١٦).

ولذا يُنصح المبتدئون بسلوك طريق الإحسان بقيام الليل من أول الليل حتى يتعوده ويزوقوا حلاوته، فيتولد عندهم الشوق إلى القيام آخر الليل الذي هو أفضل، وأما من ركن إلى قيام آخر الليل في بداية سلوكه - وكان ممن لم يتعود الاستيقاظ في هذا الوقت - فإنه غالباً لا يستيقظ، وإن قام ليلةً نام ليالٍ، والقيام يحتاج إلى مداومة، كما أنه لا يدري

متى يقوم آخر الليل - في البداية - فربما لم يتمكن من القيام إلا دقائق معدودة بخلاف ما لو قام قبل النوم، إلا أنه مع قيامه أول الليل ينوي القيام آخره ويأخذ بأسباب ذلك لئلا يفوته وقت السحر.

إخواني.... أكثروا من التفكير في الذنوب.... وأدمنوا إحصاء العيوب.... واحجبوا مزيد الشهوات عن القلوب.... ثمّنوا من شهود السحر بفضل علام الغيوب....

إخواني.... أفضل طريق لتخويف النفس عرضها على كتاب الله، فما أكثر الآيات المخوفات.... وتكرارها مع صفاء القلب، فتتولد الإرادات.... أدمنوا مخالفة شهوات النفوس.... تنجع المواعظ والتخويفات.... وأكثروا الذكر والتفكير.... تجدوا الشوق وتغزر الدّمعات....

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي «كتاب التبصرة»: «كيف تصح الفكرة لقلب غافل، وكيف تقع اليقظة لعقل ذاهل، وكيف يحصل الفهم للبدن عاطل، واعجباً لمفرط الأيام قلائل، ولماثل إلى ركن مائل، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون: ﴿وَمَا تَعْنِي الْأَيُّتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يُونُس: ١٠١)، من كتب عليه الشقاء كيف يسلم، ومن عمى قلبه كيف يفهم، ومن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم، ومن اعوجَّ في أصل وضعه فبعيد أن يتقوم.

سعد من تدبر، وسلم من تفكر، وفاز من نظر واستعبر، ونجا من بحر الهوى من تصبر، وهلك كل الهلاك من نسي الموت وأدبر، يا أرباب الغفلة اذكروا، يا أهل الإعراض احضروا، يا غافلين عن المنعم اشكروا، يا أهل الهوى خلّوا الهوى واصبروا، فالدنيا قنطرة فجوزوا واعبروا، وتأملوا هلال الهدى، فإن غمَّ عليكم فاقدرُوا.

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم، الناسين من سبقهم، المصريين على قبيح فعلهم، كم لعب الردى بمثلهم، لقد بولغ في اجتثاث أصلهم، قل للمذنبين تأملوا

العواقب؛ الآثام تبقى وتَفْنَى الأَطْيَاب، والذنوب تُحْصَى وما يغفل الكاتب، والسهم مُفَوَّق والرامي صائب، واللذات وإن نيلت فبعدها المصائب، فليتدبر العاقل وليحضر الغائب» (انتهى الغرض المقصود من كلامه وقد جُمِعَتْه من مواضع متفرقة).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي «كتاب منهاج العابدين»: «فإنَّ هذه النفس أَمَّارَةٌ بالسَّوء ميالة إلى الشر، طَمَاحَةٌ إلى الفتنَةِ ولا تنتهي عن ذلك إِلَّا بتخويفها وتهديدِها؛ إذ ليست هي في طبعها حُرَّةً يَهْمُّها الوفاء، ويمنعها الحياء من الجفاء، وإنَّما هي كما قال القائل:

العبدُ يُقْرَعُ بالعصا والحرُّ تكفيه الملامهُ
(انتهى بتصرف)

قلتُ: من أعظم ما يُولَدُ في قلب العبد الخوف تفكره في أمر الخواتيم، وأنَّه ربما لخبِيئة في نفسه لا يعلمها إِلَّا اللهُ يُبْتَلَى بسوء الخاتمة، وكذا تكراره لآيات القرآن وتدبره فيها.

تنبيه: على طالب العلم والعابد، وكذا الداعية استغلال ذلك الطبع في النفس؛ ليقَلَّ نومهم، أمَّا طالب العلم فبكثرة نظره في فضائل العلم وكثرة أبوابه وكذا قراءته لسير العلماء، وكيف تركوا الراحة في سبيل طلبه؛ فيتولد عنده الانزعاج والاهتمام بطلبه، فيورثه ذلك قَلَّةُ المنام، ليحصل المزيد منه.

وكذا العابد ينظر في تعبد السلف وسيرتهم العطرة، ويتفكر في سالف ذنوبه، وما مضى من تفريط؛ ليتولد عنده الخوف والشوق الباعثان على قلة المنام.

وكذا الداعية يتفكر في حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويتأمل قَلَّةَ الدعاة إلى الحق، وكثرة الدعاة إلى الباطل؛ فيتولد عنده الشعور بضرورة البذل والعطاء والتضحية؛ فيورثه ذلك قلة المنام، والله المستعان.

وإنما يكون تقليل النوم بتدرج العبد مع نفسه في تقليله لأوقات نومها شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى أكبر ما يمكنها دون إفراطٍ أو تفريط.

الصفة الحادية عشر- طول أملها وحبّها للبقاء؛

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «يهرم ابن آدم ويشبّ منه اثنتان: الحرص على العمر والحرص على المال».

حتى أنّ المرء ليشيب وحبّ البقاء والأمل فيه لا ينقص بل يزداد، وفي ذلك خطرٌ عظيم؛ فإنّ طول الأمل باعث سوء العمل.

قال الحسن البصري: «ما أطال عبدُ الأمل إلّا وأساء العمل».

وقال أبو الدرداء: «ثلاثٌ أضحكتنني حتى أبكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافلٌ ليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملء فيه ولا يدري أسأخطُ ربه عليه أم راض».

وقال وهب بن منبه: «وجد حجرٌ مكتوبٌ عليه: ابن آدم لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصّرت من حرصك».

وقال عمر بن عبد العزيز في إحدى خطبه: «إنّ الدنيا ليست بدار قرار بل كتب الله على أهلها الظعن عنها، فكم من عامرٍ موثقٍ عمّا قليل يخرب؛ وكم من مقيمٍ مغتبطٍ عمّا قليل يظعن، فأحسنوا - يرحمكم الله - منها الرحلة بأحسن ما بحضر تكمن من النقلة، وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى».

قال الغزالي في «الإحياء»: «وسبب طول الأمل: الجهل، وحب الدنيا: فأما حب الدنيا: فهو أنّ المرء إذا أنس بشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكلّ مَنْ كره شيئاً دفعه عن نفسه،

والإنسان مشغوفٌ بالأمانى الباطلة، فيمَنِّي نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا.

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه وصحته، فيستبعد قرب الموت معها، ولا يتفكر المسكين في أن الموت يأتي بغتةً وفجأةً، فالموت ليس له وقتٌ مخصوصٌ أو سببٌ بعينه» (انتهى بتصرف).

قلت: وعلاج ذلك بدوام التفكير في الموت وبقراءة المواعظ والآثار عن السلف في ذلك، وكذا بقراءة كتب الزهد والرقائق، والمداومة على ذلك ليخرج من قلبه التعلّق بالدنيا الشاغل عن الآخرة ومن الكتب التي عُنيّت بذلك «سير أعلام النبلاء، حلية الأولياء، تهذيب النفوس»، وليعلم المرء أن سبب فساد قلبه وحاله هو طول الأمل، ففي الحديث: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل» (رواه ابن أبي الدنيا وصححه الألباني في صحيح الجامع).

وقد حذّر تعالى من ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)، فأخبر أن طول الأمل هو سببُ قسوة القلوب وفسقها.

ومقياس الصحة عند العبد ما نصّح به ابن عمر مجاهدًا، فقال له: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» (رواه البخاري)، وفي تشريع أذكار الصباح والمساء تنبيهٌ للعبد على تذكر ذلك واستحضاره، ومع إدمان العبد التفكير في ذلك في هذين الوقتين - مع فراغ قلبه من تسلّط الشهوات -، ومع إكثاره من زيارة القبور يقصر أمله بإذن الله، وفي الحديث: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات» (رواه الترمذي وصححه

الألباني)، وفي آخر: «كنتُ قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنّها تذكركم الآخرة».

تنبيهه: المقصود من ذمّ حب الدنيا هو ذمّ تعلّق العبد بها وإهماله لأُمور الآخرة، وإلا فالنفوس مجبولة على محبتها وكرهية الموت.

الصفة الثمانية عشر- أنّها إذا شغلها شيء كثرت خواطرها فيه:

حتى أنّها تراه في منامها ويكون أول خاطرٍ عند استيقاظها ولذا قال ﷺ: «من أصبح والآخرة نيته». وقال: «من أصبح والدنيا نيته».

وقال أيضًا: «الرؤى ثلاثة... وحديث المرء نفسه».

فإن أراد المرء أن يعلم هل هو من أهل الانشغال بالدنيا، أم بالآخرة، فلينظر ما يأتيه في خاطره عند استيقاظه وعند نومه وعند خلواته!!

وكذا خواطره التي قد تأتيه في صلاته!! والناظر في أحوال السلف يرى من سيرتهم اهتمامهم الشديد بالآخرة وكثرة تفكيرهم فيها، فقد دخل ابن المبارك على أحد الصالحين وهو شارد الذهن، فقال: «أين وصلت؟ فقال: إلى الصراط»، وجلس ابن المبارك مع قوم ليلاً فانطفأ المصباح، فلمّا أوقدوا زيتته وجدوا الحية ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ قد اخضلت بالدموع؛ وذلك أنّه تذكّر الصراط إذا مرّ عليه المنافق مع المؤمن فانطفأ نور المنافق، ومرّ الربيع بن خثيم على حدادين، فتذكّر النّار فغشي عليه، ودخل الحسنُ السوقَ فوجد الفاكهة وطيبها فتذكّر الجنة وفاكهتها، فخرج ولم يشتر شيئاً.

فالنفس كالإناء لا بد أن تملأ، فإن لم يشغلها صاحبُها بالحق، شغلته هي بالباطل، وقد وضح النبي ﷺ أنّ ما يشغل المرء يأتيه فور إصباحه، فقال: «من أصبح والدنيا نيته»، «ومن أصبح والآخرة نيته».

وقد قالوا: «هَمَّكَ مَا أَهَمَّكَ».

يقول ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: «ألم تر إلى أرباب الصنائع لو دخلوا إلى دار معمورة رأيت البناء ينظر إلى الحائط، والنجار ينظر إلى الباب والنوافذ، والحائك ينظر إلى النسيج، فكذلك المؤمن اليقظان: إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبور، وإذا شكأً لما ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة».

فَضْلٌ

ويتعلق بهذه الصفة جزع المرء عند البلاء وصبره...

قَالَ الْعَالِي: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ١٩-٢١)، فكلما تعلّق قلبُ العبد بالدنيا واهتمّ بها، كلما جزعت عند البلاء نفسه، وضاق عليه الأرض بما رحبت عند فقدته لحظّها منها أو لشهوة من شهواتها، فهو غير متعلّق بالله، بل الدنيا أكبر همّه ومبلغ علمه، فقلبه مضطرب لا يعرف التوكل على الله ولا الرضا بقضائه ولا التفويض إليه في كلّ ما يختاره للعبد، فأين حال هذا من حال عبدٍ تعلّق قلبه بالله، فوثق فيه، وتوكل عليه في كل أموره، ورضي باختياره له، ولم يعترض عليه فيما قسمه له، ولسان حاله ومقاله: «أصبحت ألتمس رضائي في مواقع القدر» كما ورد عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فالفاجعة عنده أن يُبتلى في أمر دينه لا أمر دنياه، وتأمل حال الثلاثة الذين خلفوا كما أخبر عنهم القرآن ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨)، فلتعلّق قلوبهم بالآخرة صار هذا حالهم عند بلاء الدين.

الصفة الثالثة عشر- أنها تميل إلى الراحة والغفلة:

وقد علمنا النبي ﷺ ذلك بكثرة استعاذاته من «العجز والكسل» في غير ما حديث صحيح، وعلم أمته الطريق الصحيح لنيل الراحة، وهو ترك الراحة، فقال: «يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقد: عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإن استيقظ وذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت الثانية، فإن هو صلى انحلت العقد كلها، وأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» (متفق عليه)، فانظر كيف كان سبب النشاط والراحة هو ترك الراحة بقيام الليل، وكيف كان النوم - الذي تظن النفس فيه الراحة - هو سبب الكسل والشعور بمزيد الحاجة إلى النوم.

وقد جرب السلف رحمهم الله الأحوال، فوجدوا - كما أخبر رسولهم ﷺ - أن طريق الراحة ترك الراحة.

فقال بعضهم: «من أراد الراحة ترك الراحة»، وقال آخر: «ما ذاق طعم الراحة من أعطى نفسه مرادها من الراحة».

أي: الزائد عن الحاجة، وإلا فلا بد من أخذ النفس لقسطها من الراحة، ولكن دون الإخلال بالواجبات أو السنن والآداب.

وقال آخر: «أدركتُ أنا ساء يستحيون من الله من طول رقادهم» (أي: نومهم) بالليل.

وسئل ابن الجوزي: أيجوز لي أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ فقال: «عند نفسك من الغفلة ما يكفيها».

وقال ابن القيم: «لابد من سنة الغفلة ورقاد الغفلة ولكن كن خفيف النوم»، والله
دَرَّ القائل:

انتبه من رقدة الغفلة فالعمر قليل
واطرح سوف وحتى فهما داءٌ دخيل

وقيل لبعض الصالحين: إلى كم تتعب نفسك؟ فقال: راحتها أريد، وقيل للإمام
أحمد: متى يجد العبدُ طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

أحزان قلبي لا تزول حتى أبشَّرَ بالقبول
وأرى كتابي باليمين وتقرَّ عيني بالرسول

وقال يحيى بن معاذ: «من أعظم الاغترار؛ التهادي في الذنوب مع رجاء العفو من
غير ندامة، وتوقع القرب من الله بغير طاعته، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار
المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله مع التفريط».

وصدق الشاعر إذ يقول:

يا رجال الليل جدُّوا رَبِّ دَاعٍ لَا يُرَدُّ
لا يقوم الليل إلا من له عزمٌ وجدُّ

(انتهى من كتاب سباق نحو الجنان لـ د/ خالد أبو شادي بتصرف)

وما أحسن الأمثال التي ضربها السلف للغافلين:

❦ فعن أحدهم أنه خرج على قوم يلعبون، فكان كلما مرَّ بهم قال لهم: أخبروني عن
قومٍ على سفرٍ إذا جاء النهار لعبوا، فإذا جاء الليل ناموا، فمتى يصلون؟ فكان كلُّ يومٍ يخرج
عليهم يقول لهم ذلك، حتى انتبه شابٌ منهم، وقال لهم: أنتم والله المقصودون، إذا كنتم بالنهار
تلعبون وبالليل تنامون، فمتى تقطعون سفركم إلى الآخرة، فزهدي في الدنيا وصلح حاله.

❁ وضرب الحسن البصري مثلاً آخر، فقال: «يا ابن آدم: السكين تُشحذ، والتنور يُسجَّر، والكبش يعتلف، فهكذا الإنسان اللاهي في دنياه، فهو كالكبش يأكل العلف يُقدَّم له، وربما نُسجت أكفانه وأعدَّ قبره، وهو لا يسه عن ذلك بطعامه وشرابه».

الصفة الرابعة عشر- التحسر على ما فاتها مما أتحب وتهتم به:

ولذا ترى المحبين للمال يتحسرون على ما فاتهم من صفقات كانوا يتوقعون منها أرباحاً كثيرة، وكذا المؤمن المبصر يتحسر على ما فات من طاعة الله، فعلى طالب الهداية أن يكثر من تذكير نفسه بسيئاته وغفلاته وما فاتته من أعمالٍ صالحة ثوابها كثير وأجرها عظيم عسى أن يندم ويستدرك فيما بقي، فيا حسرةً على ليالي القدر التي فاتت.... وعلى الأيام القائظات فقلّة فيها هي التي صامت.... وعلى الليالي الباردات، فأفرادٌ فيها هي التي قامت.... وعلى أذكارٍ فضلٌ عظيم.... فكم فاتت وكم فاتت....؟!!

ويزيد العبدَ ندماً على ما فاتته اطلاعه على الثواب العظيم لما فاتته كما ورد عن ابن عمر حيث كان يتبع الجنازة حتى يُصلي عليها دون أن تدفن، فلما بلغه أنّ ثواب اتباعها حتى تدفن قيراط من الأجر قال: «كم فرطنا في قراريط كثيرة».

فإذا صار هذا هو حال المؤمن، خشع قلبه ولانت نفسه، وقلّت فيه خواطر العجب والرياء، وزادت همّته لتحصيل ما بقي عسى أن يعوّض بعض ما فات.

الصفة الخامسة عشر- أدّها طبعت على محبة من أحسن إليها.

الصفة السادسة عشر: الاستحياء مما ن قصّرت في حقه خاصة مع تواتر

فضائله عليها:

فعلى العبد أن يديم النظر في نعم الله عليه وأعظمها على الإطلاق نعمة الإسلام ونعمة السُنّة، فمن أدام النظر في نعم الله نبت في قلبه محبة الله ولا بدّ، وتولّدت عنده

نية الطاعة والاستقامة؛ فقد قالوا: «الإنسان أسير الإحسان»، وقالوا: «تبت المحبة على حافات المنن» أي: برؤية المنن والعطايا، وقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأِنْ نَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ (الْحَجَل: ١٨)، وقال أيضًا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (الْحَجَل: ٥٣).

فإذا تفكّر العبد في عظيم إحسان الله إليه، وتفكّر في عظيم إساءته وتقصيره في حقه، وأدمن ذلك تولّد في قلبه الحياء من الله الذي هو أول منازل أهل الإحسان كما قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تُسمّى الحياء، وحقيقته خُلُقٌ يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق».

وقال ذو النون: «إنما أهاج الحياء من الله معرفتهم بإحسان الله إليهم، وعلمهم بتضييع ما افترض الله عليهم من شكره، وليس لشكره نهاية كما أنّه ليس لعظمته نهاية».

وأنشد بعضهم:

يا حسرة العاصين عند معادهم هذا وإن قدموا على الجنّات
لو لم يكن إلّا الحياء من الذي ستر القبيح لكان أعظم الحسرات

وقال الحسن: «لو لم نبك إلّا للحياء من ذلك المقام، لكان ينبغي لنا أن نبكي فنطيل البكاء».

وأنشد أبو حامد للإمام أحمد:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فأمره أحمد بإعادتها عليه، فأعادها عليه، فدخل داره، وجعل يردد هما ويبيكي.

(انظر: «فقه الحياء» للشيخ محمد إسماعيل)

الصفة السابعة عشر- ميلها إلى المستحسّنات من نساء ومطعم وملبس وصوت

وغيرها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ (الْعَمَرَان: ١٤).

ولعلم الشرع منها ذلك، لم يكلف بإعدام الشهوة في النفس، ولكن أتى بتهذيبها، فشرع النكاح، وأباح أكل الطيبات ولكن دون إسراف، وأباح لبس ما لا يضرُّ بقلب العبد، ووجه تلذذ النفس بالصوت الحسن إلى التعلق بالقرآن والتغني به؛ فإنَّ لذة سماعه والتدبر بقراءته أعظم بكثير وأبقى من لذة سماع الغناء المحرّم أو التلذذ بسماع أصوات النساء والمردان.

أمّا عن ميلها إلى أكل الطيبات، فهذا مباح، والتعبد بترك أكله بالكلية بدعة، ولكن السُّنّة عدم الإسراف، ففي الحديث: «المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» (متفق عليه).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكثرهم شعباً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وقال ابن القيم: «من تغدّى قلبه بمحبة الله ذهب عنه بطنه الشهوات».

وقال أبو سليمان الداراني: «من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وحرمان الشفقة على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظنَّ أنَّ الخلق كلَّهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وإن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل».

قلتُ: هكذا قال وهنّ خمسة ولعلّ السادسة «كثرة النوم».

وقال الحسن: «من أراد أن يخشع قلبه ويغزر دمه، فليقلل من أكله».

وقال الحلبي رحمه الله: «من أكل فليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوى عليها» (انظر كتاب «رد إلى رuchi» لـ د/ خالد أبو شادي).
وأما ميلها إلى الصوت الحسن، فقد استبدل لها الشرع ما هو أحسن وأطيب من الغناء.

قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».
(رواه أبو داود وصححه الألباني)

وقال أيضاً: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن لصوت يجهر بالقرآن».
(رواه أبو داود وصححه الألباني)

وقال بعض السلف: «ما تلذذ المتلذذون بمثل التغني بالقرآن».

وأما عن ميلها إلى النساء، فقد شرع لها النكاح، ولكن لا بد من الحذر من إغواء الشيطان، ووسوسته للعبد ليعلق قلبه بالحرام.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «يُعرض الإنسان عن زوجته ويؤثر عليها الأجنبية، وقد تكون الزوجة أحسن، والسبب في ذلك أن عيوب الأجنبية لم تبين له، وقد تكشفها المخالطة، ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشفت له المخالطة ما كان مستوراً ملها، وطلب أخرى إلى ما نهاية له».

فاسمُ بعينيك إلى نسوة	مهورهن العمل الصالحُ
وحدت النفس بعشق الألى	في عشقهن المتجر الرابعُ
واعمل على الوصل فقد أمكنت	أسبابه ووقتها رائحُ

(انتهى من كتاب رد إلى رuchi)

وأما عن ميلها لمستحسن الملبس فقد أباح الشرع أن يلبس المرء ما لا يضر بقلبه، ولكن ليحذر من المبالغة في ذلك؛ لئلا يفسد عليه قلبه، وفي الحديث: «البذاذة من الإيمان» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيضًا: «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخِيَّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلٍّ إِيْمَانٍ شَاءَ» (رواه الترمذي وحسنه الألباني)، وذلك محمولٌ على استحباب عدم المبالغة أو الإكثار من ذلك لحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ» (انظر: السلسلة الصحيحة: ١٣٢٠)، ويوضح ذلك أيضًا نهي رسول الله عن كثيرٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإرفاء، وفي الحديث أيضًا: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّرَجُّلِ إِلَّا غَبًّا» (السلسلة الصحيحة: ٥٠١)، وقوله «غَبًّا» أي: يومًا ويدع يومًا ومعناه يتركه أحيانًا ويفعله أحيانًا.

وفي الحديث: «إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا مِنَ الْمُتَنَعِّمِينَ». (السلسلة الصحيحة: ٣٥٣)

تنبيهان:

ورد النهي عن الإسبال (إطالة الملبوس عن الكعنين) ففي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَسْبِلِ الْإِزَارِ» (السلسلة الصحيحة: ١٦٥٦)، وفي الحديث: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لِبَاسِ جُلُودِ السَّبَاعِ» (السلسلة الصحيحة: ١٠١١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شَهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أُلْهَبَ فِيهِ نَارًا» (رواه ابن ماجه وحسنه الألباني).

وقال أيضًا: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ» أي: من الرجال (رواه النسائي وأحمد وصححه الألباني)، وكلُّ هذه الملبوسات تفسد القلب وتورثه الخيلاء.

ينبغي للمؤمن أن يستغل حب نفسه وميلها للمستحسّنات بأن يرغبها في الجنة ويشوّقها إليها، وذلك بالإكثار من الاطلاع على ما ورد في صفة الجنة في الكتاب والسنة الصحيحة؛ فإن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومن أفضل الكتب التي عُنيت بذكر صفة الجنة ونعيمها في الكتاب والسنة الصحيحة (كتاب الجنة والنار) لـ د/ عمر سليمان الأشقر.

الصفة الثامنة عشر - أذّها تتأثر بالقصص؛

ولذا كثر القصص في القرآن، وكذا في السنة، فإنه يجذب انتباه النفس، ويحدث لها الموعظة، قَالَ الْعَالِي: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يُوسُف: ١١١)، وقال أيضًا: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هُود: ١٢٠).

فعلى المؤمن أن يستغل ذلك بإطلاع نفسه على قصص الصالحين وأخبارهم؛ ليكون حافزاً لنفسه على التشبه والافتداء بهم، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء والرسل، وفي الاطلاع على سيرهم - من الأخبار والآثار الصحيحة - نفع كبير، وكذا في الاطلاع على سيرة النبي ﷺ وأصحابه، فإن فيه ربطاً للنفوس بذلك الجليل الفريد الذي قاد الدنيا بشرع الله الحنيف، كما أن فيه موعظة لأفراد الأمة وإرشادهم وتوسيعاً لمداركهم في دعوتهم إلى الله عز وجل.

تنبيهات:

قد أغرق كثير من الخطباء - ولا حول ولا قوة إلا بالله - في خطبهم ومواعظهم بذكر الموضوعات والإسرائيليات لجذب شوق السامعين وحياسة إعجابهم، وجعلوا أو تجاهلوا لزوم التقيّد بالسند، وعدم تصديق ما لم يصحّ سنده، وفي الحديث: «القصاص ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو مختال» (رواه الطبراني وصححه الألباني).

من الكتب الرائعة والتي احتوت على قصصٍ صحيحٍ: كتاب صحيح القصص النبوي، صحيح قصص الصحابة مع الرسول ﷺ لد/ عمر سليمان الأشقر، ومن الكتب الرائعة التي احتوت على قصص الصالحين مسندة: كتاب سير أعلام النبلاء.

تسعد النفوس وتشتاق بسماع الكرامات، فعلى المؤمن أن يستغل ذلك بإطلاع نفسه على كرامات الصالحين لتشتاق إلى مثل طريقهم، ولكن ليعلم المرء بأن أعظم كرامة في الاستقامة.

الصفة التاسعة عشر- الفضول:

فعند النفس فضولٌ نظر، فتتطلع ببصرها إلى ما غاب عنها، وكذا فضولٌ سمع لما يتحدث الناس به، وكذا فضولٌ كلام تقطع به الوقت وتُري غيرها به علمها وفصاحتها، وكل واحدٍ من هذه الثلاثة مهلكٌ للقلب، إن لم ينتبه العبد ويحاسب نفسه ويراقبها.

وفي الحديث: «إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَسْوَأُكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ» (رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع)، و«الثَّرَثَارُونَ»: هم كثيرو الكلام، و«المتفيهقون»: الذين يتوسعون في الكلام ادعاءً منهم للفقهِ والفصاحة، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. (الإِسْرَاءُ: ٣٦)

وقال بعض السلف: «مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ».

وقال ﷺ: «مَنْ أَطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقُتُوا

عينه» (رواه البخاري ومسلم).

وقال أيضًا: «من استمع إلى حديث قومٍ، وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة» (رواه البخاري)، و«الآنك»: بمد الهمزة وضمّ النون: هو الرصاص المذاب.

ولله دَرُّ القائل:

أقلل كلامك واستعد من شرّه إنّ البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من عيّه حتى يكون كأنه مسجون
وكل فؤادك باللسان وقل له إنّ الكلام عليكما موزون

والقائل:

وسمّعك صُنْ عن سماع القبيح كصونِ اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريكٌ لقائله فانتبه

وقال المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: «وليس من جاريةٍ أشدَّ ضررًا على العبد بعد لسانه من سمعه، لأنّه أسرَّ رسولٍ إلى القلب، وأقرب وقوعًا في الفتنة».

قلتُ: ومن أطلق العنان لفضول سمعه وبصره ولسانه - ولو بالمباح - فسد قلبه وقسى، وكثرت عليه الخواطر التي تشتت أمره، ولا يكاد يُقبَل معها القلب بكليته على الله، ويصعب حينئذٍ الخشوع في الصلاة أو التدبر لقرآنٍ أو ذكرٍ أو السكينة والإخبات في دعاءٍ، ويصير العبد عند أدائه العبادات جسدًا بلا قلب، وما أعظم خسارته حينئذٍ.

كما أنّ فضول المباح يقود النفس - من حيث لا تشعر - إلى الحرام.

ولذا قال بعض السلف: «لا يكون العبد متقيًا حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من المباح».

كما أنّه إذا لم يراقب هذه الأعضاء أورثه فضولها تعبًا وعذابًا في الدنيا قبل الآخرة، فربما تكلم بكلمةٍ أفسدت عليها أمر معاشه، وربما نظر نظرةً تعلّق فيها بمعشوقٍ لا

سبيل لوصوله إليه، فلا يزال قلبه في ألمٍ وحسرة، وربما سمع صوت مَنْ تعلق به لأجل صوته، فيفسد عليه قلبه.

كما أن إطلاق العبد العنان لهذه الأعضاء يؤثر على قلبه ولا بد، حتى أنه ربما امتد هذا الأثر بعد توبته واستقامته.

قال الشيخ الطنطاوي فيما نقله عنه د/ خالد أبو شادي: «وكذلك كل ما تسمعه لاسيما إن سمعته في الصغر، إنه بذرة خيرٍ أو بذرة شرٍّ، إذا وجدتِ الظرف المناسب وَضَعْتَكَ على طريق الجنة أو سبيل النار، فانتبهوا - يا أيها القراء - لما تنظرون فيه من كتبٍ ومجلات، وما تسمعون من مسلسلاتٍ ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، إن بعضه يبقى ما بقيت الحياة» (انتهى من كتاب «ردّ إلي روجي»).

تنبيهان:

قد تهاون الكثير اليوم بما يسمّونه (النكت) وتعلّلوا بأنهم يريدون التسلية مع أنّه ورد الوعيد الشديد على ذلك ففي الحديث: «ويلٌ للذي يُحدّث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له» (رواه أبو داود وحسنه الألباني)، وللمستمع نصيبٌ من الوزر، قال تعالى: ﴿سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ﴾ (المائدة: ٤٢).

المؤمنُ وقورٌ بإيمانه، وصالح قلبه، وفضول الكلام والسمع والبصر لا يليق به، بل يذهب ببهاء الإيمان وحلاوته من القلب، فعلى العبد أن يحذر من ذلك، وأن يتكلف التخلص من ذلك حتى يصير عادةً، ولقد صدق القائل: «كثرة النظر إلى الباطل وأهله يذهب نور الإيمان من القلب» قلتُ: وكذا الاستماع إليه والتكلم به، وقد قال تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

الصفة العشرون - أنها تأنس بغيرها وتنصر من مخالفة غيرها لها؛

وهذا سبب ضلال أكثر الأمم وكفرهم؛ وهو اتباعهم لما كان عليه آبائهم، ونفرتهم من المخالفة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الشورى: ٢٣، ٢٤)، ولما كانت النفس مائلة إلى موافقة أبناء عشيرتها كان التزام المرء بالحق ولو خالفهم دليلاً على صدقه ويقينه.

قال بعض السلف: «تفردك في الطلب دليلٌ على صدقك فيما تطلب».

ولخطورة هذا الأمر كثر في القرآن والسنة وكلام السلف التنبيه عليه والتحذير من اتباع سواد الناس، ولو كانوا على الباطل، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (الأنعام: ١١٦)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء» (رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ وَرَاءَكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ.... أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».

(رواه ابن ماجه وصححه الألباني)

وقال الفضيل: «اسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وقال بعض السلف: «الجماعة الحق ولو كنت وحدك» يقصد الجماعة المذكورة في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَّا إِنْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

الصفة الحادية والعشرون - أنها تسعد بشعورها بالتميز:

ولذا تميل إلى الإعجاب بنفسها حتى أنها ربما فرحت بمدح الناس لها، ولو كان بما ليس فيها، وقد حذر تعالى من ذلك الخلق في قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الزمر: ١٨٨)، فهي وإن نزلت في الكفار من أهل الكتاب إلا أن وعيدها يقلق ويخوف كل معجبٍ بنفسه مدلٌ بعمله على ربه!!

وقد اعتبر الشرع ذلك، ففيه رسول الله ﷺ عن لباس الشهرة، وهو الملبس الذي يلبسه المرء مخالفاً لزيِّ قومه ليشتهر بينهم ويتميز ففي الحديث: «مَنْ لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم أُلهب فيه نارا» (رواه النسائي وأحمد وصححه الألباني).

وكذا حذر رسولنا ﷺ من ابتداء من أصابته فترة بعد اجتهد في العبادة؛ فإنه قد يتبدع حينئذ طلباً للشهرة والتميز، ففي الحديث: «لكل عاملٍ شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك» (رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني).

وكذا حذر رسولنا ﷺ من كتمان المرء للعلم عمّن سأل، والذي يدفعهم إلى ذلك - في أكثر الأحيان - هو طلب التميز والانفراد عن الناس بالعلم، ففي الحديث: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم بلجامٍ من نار يوم القيامة».

وقد بلغني عن كثيرٍ من أساتذة الأسنان أنهم لا يدرّسون للطلبة كيفية (التقويم) زاعمين أنهم قد تعبوا في تعلّمها وسافروا من أجلها إلى الغرب، وهم مهتدون بهذا

الحديث؛ فإن ذلك العلم مما يحتاجه المسلمون أن يتوافر في بلادهم دون أن يحتاجوا إلى الغرب أو غيره.

فائدة:

ينبغي للمؤمن أن يستغل هذه الصفة في نفسه، فيشوقها ويرغبها في سلوك طريق الزهد والعبادة والعلم والإحسان؛ فإن ذلك هو التميز الحقيقي حيث أفضل صحبة ورفقة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً (النساء: ٦٩، ٧٠)، وإذا كان أهل الدنيا قد طلبوا التميز في الدنيا ونعيمها الزائل الحقيق، فإن أهل الآخرة قد طلبوه في الآخرة، قال الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا، فألقها في نحره، ونافسه في الآخرة»، وقال وهيب: «إن استطعت ألا يسبقك أحدٌ إلى الله فافعل»، وقال آخرون: «إن استطعت أن تسبق الريح في طاعة الله فافعل»، وقد قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤)، وكان أحد الصالحين يتوخى الصيام في الحر الشديد الذي لا يكاد يُطاق حرُّه، فقيل له في ذلك، فقال: «إن السلعة إذا رخصت اشتراها كلُّ أحد، وإذا غلت لم يقدر عليها إلا الأغنياء، فكذلك الصيام في الحر لا يقدر عليه إلا الأتقياء»، وعن ابن الزبير رضي الله عنه «أنه ما كانت عبادة تشق على الناس إلا وتكلفها»، وعنه: «أنه لما كانت السيول بمكة طاف حول الكعبة سابعاً».

إلا أن أهل الدنيا لضيق الدنيا يشحُّون بها، وأما أهل الآخرة فهم أجود الناس بنصح الناس ونفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فهم يودّون أن لو ذاق الناس جميعاً حلاوة الإيمان وأحسنوا في عبادة ربهم، بخلاف أهل الدنيا الحريصين على التميز فيها، فهم يحزنون إذا سمعوا عن أحدٍ نال منها مثل ما نالوا، فمن كان من أهل الآخرة ويُجزئه أن يعلم ببناء الناس على أخيه المؤمن، ويورثه الحقد والحسد نبوغ مؤمن، فليس من أهل

الآخرة على الحقيقة، نعم - لا يريد أن يسبقه أحدٌ إلى الله غبطةً وغيرَةً في الخير، ولكن لا يحسد ولا يحقد.

قال بعض السلف: «مَنْ سَمِعَ بِأَحَدٍ سَبَقَهُ إِلَى اللَّهِ فَمَاتَ مِنَ الْحَسْرَةِ لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ مَلَامَةٌ»، وأخبر مالك بن دينار أن رجلاً رأى في المنام قائلاً يقول: «يا أيها الناس هلمّوا إلى ربكم، فما قام إلّا محمّد بن واسع، فغشي عليه، فلما أفاق قال: سبقنا محمّدٌ والله إلى ربه». تنبيهه: على الآباء أن يكون حرصهم على نبوغ أبنائهم في أمر الدين أعظم من حرصهم على ذلك في أمر الدنيا، فالآخرة خيرٌ وأبقى، وصلاح أبنائهم في ميزان حسناتهم، وأمّا نبوغهم في أمور الدنيا إن لم يكن معه تقوى ونيةٌ صالحةٌ لم يكن فيه نفعٌ لهم، بل ربما كان وبالاً.

الصفة الثانية والعشرون - أنها تنهار عزيمتها عند الشعور باليأس أو الفضل؛

فربما رأى العبدُ نفسه تأتي الذنب أو الشهوة المكروهة، وكلّما تاب وعزم على تركها وقع فيها ثانيةً، فإذا به ييأس من صلاحه، وقد ورد التحذير من ذلك، وأنّ ذلك من تلبيس إبليس عن غير واحدٍ من السلف، وقد أحسن بعض الحكماء حين قال: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يُخرّجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾».

وكذا ربما يأس العبد من استقامته على طلب العلم؛ لكونه يرى نفسه كلّما نشط حيناً تكاسل بعد، أو لكونه يرى مسائل العلم قد استغلقت عليه، أو لكونه رأى نفسه قد كبر في السنّ، فيظنّ أنّ وقت الطلب قد فات، وكلّ ذلك من خدع الشيطان؛ فإنّ المرء مع مداومته على طلب العلم، ومثابرته على ذلك يصل بإذن الله، وكلّما دام طلبه، كلّما قلّت الفترات الزمنية للفتور الذي يعتري النشاط حتى يتلاشى الفتور إلّا ما لا يكاد يسلم منه

أحد، وقد قالوا: «من مات في طريق فهو من أهله» أي: وإن لم يصل، وقد قالوا أيضًا: «من سلك طريقًا فإمّا أن يصل وإمّا أن يموت فيكون من أهله».

وكذا ربما يأسست إذا وجدت نفسها مثقلةً بأعباء عملها الدنيوي، ظانّةً استحالة صلاح القلب واستقامته على طريق الإحسان مع هذه الأشغال التي لا يتيسر معها كثيرُ عبادة، وقد بدّد ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ ظِلْمَات هذا اليأس بإخباره أنّ طاعة العبد في هذه الحال - ولو قلّت - هي علامةٌ على بطولته، فقال: «ليس العجب من صحيح فارغ واقفٍ مع الخدمة، إنّما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة غير متخلّف بما يقدر عليه»، وقد كثر كلام السلف في فضل عبادة المرء في هذه الحال، وتصبيره بفضل قيامه على الأولاد بالنفقة، فعن ابن المبارك أنّه كان في رباطٍ فقال لأصحابه: «هل ترون أحدًا أفضل عملاً ممّا نحن فيه؟ فقالوا: لا، فقال: لروعةٌ صاحب العيال عند بكائهم أفضل ممّا نحن فيه»، قلتُ: ومقصوده بيان عظيم فضل السعي على رزق الأولاد فهو فرض عينٍ، والرباط فرض كفاية، ثمّ إنّ السعي على رزق الأولاد من الجهاد، ففي الحديث: «وإن كان قد خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أولادٍ صغارٍ فهو في سبيل الله» (وهو في الصحيح).

يقول د/ خالد أبو شادي حَفَظَهُ اللَّهُ: «أيها المتعجلون... أنتم لا ترون سوى قمة الهرم، ولكنكم لا تلمحون ما بُذِل فيه من عَرَقٍ وجهدٍ، أنتم لا تبصرون إلّا اللمحة الأخيرة واللقطة المبهجة والمشهد السعيد، أمّا السياق الطويل من المجاهدة والصراع والمثابرة والكفاح، فما خطر على بالكم قط، لذا طمعتم في نيل العلا برقدةٍ في الفراش، والغرق في أماني الحالمين، وهذا محالٌ في سوق الآخرة، والمشاهد أنّ كثيرًا من المرضى يشاهدون مَنْ مَنْ الله عليهم بالعافية والسمو في آفاق المتعة الإيمانية، فيسعون في إدراكهم،

ويحاولون مطاولة النجم في علاه بقفزة واحدة، وعندما يفشلون يرجعون خائبين تاركين المحاولة ويائسين من الشفاء، ولو أنهم صعدوا السلم درجة درجة، وبدءوا بالانتهاء عما حرم الله وساروا إلى الفرائض فأتموها، ثم أتبعوا ذلك بالنوافل، لوجدوا في نهاية الطريق ما وجد هؤلاء، ولكنكم قومٌ تستعجلون» (انتهى كلامه بتصرف من كتاب ردّ إليّ روحي).

الصفة الثالثة والعشرون - أنها شحيحةٌ بحفظها؛

وقد أخبر سبحانه عن ذلك فقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)، وذمّ سبحانه الذين لشحهم وحرصهم يبالغون في أخذهم لحقوقهم، وفي الوقت ذاته يحرصون على توفير ما يقدرّون عليه ممّا هو عليهم، فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) (المطففين: ١-٤)، ومدح سبحانه مَنْ مَنْ عليهم بوقايتهم شرّ هذا الداء - الشح - فقال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التجانب: ١٦).

ومن صور التطفيف مبالغة العبد وإلحاحه على ربه في الدعاء بنيل حظوظ نفسه، مع تقصيره الشديد في طاعة ربه، وما أمره به ونهاه عنه، فهلاً قام بما هو عليه قبل أن يسأل ما هو له؟؟

ومن صوره كذلك رضا العبد في أمر دينه باليسير، فهو يقيس نفسه بمن هو أقلُّ منه في الدّين مدّعياً بذلك قيامه بحقوق ربه، بينما يقارن نفسه في أمر الدنيا بمن هو أعلى منه، ولا يرضى إلاّ بالكمال مع أنّ نقص أمر الدنيا قد لا يضرّه بخلاف أمر الدّين!!

ومن صوره كذلك مبالغة العبد في المماكسة عند الشراء ليقبّل قدر المستطاع من ثمن ما يدفعه - ولو ظلم البائع - بينما يغالي في ثمن ما يبيعه قدر ما يمكن ليوفّر على نفسه حظها من المال!!

ومن صورته كذلك مبالغة العبد في عدّه فوات الآخرين وأخطاءهم في حقه - ولو صغرت -، مع تقليله لأخطائه في حقهم - ولو كبرت -.

وعلاج ذلك بإطلاع العبد نفسه على ما ورد من ذمّ الشحّ ومدح الجود والإيثار، فأين مَنْ يبخس الناس حقوقهم مَنْ يأخذ من حقه ليعطيه غيره جوداً وكرماً وإيثاراً ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحِجْر: ٩)؟؟ وأين من يياكس ليبخس الأثمان مَنْ هو سمح النفس فنوع القلب!!، وفي الحديث: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

وأين الطمّاع مريض القلب الذي يفرح بما يوقّر على نفسه من حقوق الناس، مَنْ يفرح بمن يسأله كما ورد عن بعض السلف أنّه أتاه سائل للصدقة فقال له: «مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة».

وأين الحريص على الكسب من أيّ وجهٍ مَنْ كان يتورع عن أيّ مال فيه شبهة، ولو قلّ.

قال ابن المبارك: «لأنّ أردّ درهماً واحداً من شبهة أحبّ إليّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم».

وعن محمد بن سيرين: «أنّه شك في مالٍ خشي أن يكون فيه شبهة، فتصدّق به كلّ».

فَضْلٌ

وينبغي للمرء أن يكون صادق العزم قوي الإرادة في قيادته نفسه إلى الله.

يقول د/ خالد أبو شادي حَفَظَهُ اللهُ: «البداية القوية تضمن النهاية السعيدة، والعزيمة الفتية تكفل دوام الصحة أعوامًا مديدة، فلا بد من عزيمة وقرار حاسم ووقفة محورية تعترف فيها ليس فقط أنك مريض؛ بل وتعلن أنك في أمس الحاجة للدواء، ويرى ذلك في شدة انطلاقتك وحماستك، وبدون هذه البداية تتعثر في النهاية بل قبل النهاية، وصدق الشاعر إذ يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقسُ أحيانًا على من يرحم

قد يقسو الأب على ابنه وهو صغير في سنّ التنشئة ليقيمه على الجادة، وهذه القسوة هي عين الرحمة.

قال أبو عثمان الحيري: «من لم تصح إرادته ابتداءً؛ فإنّه لا يزيده مرور الأيام عليه إلاّ إدبارًا»، فعلى المرء أن يُلزِم نفسه من الطاعات ما يهذب سلوكها ويلين طبعها، وليكثر عليها من النوافل حتى تذلل طبيعتها الأمّارة بالسوء وتستسلم للخير، وهذا فعل الله وتشريع، فقد أمر سبحانه الصحابة أن يصبر الواحد منهم للعشرة ثمّ خفف عنهم ذلك إلى الاثنين، ومن ذلك أنّه حرّم على المسلمين الأوائل في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع حتى اعتادته النفوس ثمّ خفف عنهم، ومن ذلك أنّه فرض قيام الليل عامًا كاملة لتعتاده النفس ثمّ نزلت آية التخفيف بجعله نافلة.

قال ابن القيم: «وقد يفعل قريبًا من هذا بعض الحمالين فيزيدون على الجمل شيئًا لا يحتاجون إليها ثمّ يحطُّ تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم»، فخذ نفسك بالعزم،

وعوّدها قضاء الطاعات إذا فاتتك حتى لا تسترسل في ترك الطاعة والتقصير، فتعتاده،
ويصعب عليها المواظبة بعد» انتهى كلامه بتصرف من كتاب «ردّ إليّ روعي».

قلت: لابد من العزم الأكيد والهمة العالية من البداية، ولكن يتدرج المرء مع نفسه
في الطاعات والأوراد لثلاثاً تمّل وتنفر، ويصعب عليه قيادها بعد، فيبدأ في قيام الليل مثلاً
بالصلاة بعد العشاء مباشرة في كل ركعة بعشر آيات مثلاً، فإذا استقامت نفسه حيناً على
ذلك، زاد إلى ربيع، فإذا استقامت حيناً زاد ربيعين ويجعل لنفسه ورداً في آخر الليل ليغتني
وقت السحر، وهكذا يفعل في الصيام وباقي النوافل.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «بدائع الفوائد» مبيناً أن هذا منهج رباني: «فينقل عباده
بالتدرج من اليسير إلى ما هو أشد منه لثلاثاً يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تتحمّله ولا تنقاد له،
وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئاً بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة، وكذلك
المحرمات، ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين؛ فلما ألفوها زيد فيها ركعتين
آخرتين في الحضر.

ومن هذا أنهم أمروا أولاً بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عينا وبين التخيير بينه
وبين الفدية؛ فلما ألفوه أمروا بالصوم عينا.....» (انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ).

فَضَّلْ

وليُعلم السالك إلى الله أن التقصير يدعو إلى تقصير كما أن الطاعة تدعو إلى طاعة،
فقيام المرء الليل يدعوه إلى حسن أداء صلاة الفجر، وذكره لربه بعد الصلاة حتى تطلع
الشمس وصلاة الضحى، وحسن قيامه بوظائف العبودية طيلة النهار، ثم ذكره لربه
وقت المساء ثم قيامه الليل، وهكذا تستمر الطاعات، وأمّا التقصير فهو مدعاة لمزيد
من التقصير، فإذا وجد المرء تقصيراً تاب واستغفر، وسأل ربه الهداية، ولا ييأس؛ فإن
تكرار التوبة والإنابة والدعاء والتضرع يباعد بين فترات الانتكاسة والفتور حتى تقرب

أن تتلاشى، والله على كل شيء قدير، فلا بد من متابعة ومراقبة ومحاسبة ومجاهدة، والله الموفق وحده لا شريك له.

يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي «كتاب الإحياء»: «اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية نفسه لأنّ بذلك فلاحها، فالعقل يستعين بنفسه في هذه التجارة؛ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزيكها، وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه في الربح، فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً، فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال، ثم بعد الفراغ (أي: من المشارطة والمراقبة) ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها؛ فإنّ هذه تجارة ربحها بالفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهمّ كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبي، فحتمٌ على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه في حركاتها وسكناتها وخطواتها؛ فإنّ كلّ نفسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزًا من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد... ثم قال: اعلم أنّ حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب سبحانه وانصراف الهم إليه والاشتغال به، ويثمر ذلك علم النفس بأن الله مُطَّلَعٌ على الضمائر عالمٌ بالسرائر رقيبٌ على أعمال العباد قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت، ولا يخلو العبد أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة: الإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن آفات الرياء والعجب والمنّ به.

ومراقبته في المعصية: بالتوبة والندم والإقلاع عنها والحياء من الله والاشتغال بالتفكير (قلتُ: أي كيف خلّى الله بينه وبينها ولو شاء لعصمه، فيخاف من سوء الخاتمة، وكذا فضل الله عليه إذ ألهمه التوبة ولو شاء لجعله يتهاذى فيها، وكيف أنّ الله لم يقبضه عليها، ولو شاء لفعل، فساءت خاتمته، وكذا يتفكر في صبر الله عليه وحلمه حيث لم يعاجله بالعقوبة أثناء فعلها، إلى غير ذلك من أبواب التفكير).

ومراقبته في المباح: بمراعاة الأدب (أي: آداب تناول المباح من حسن نية واتباع السنّة من عدم المبالغة في التكالب عليه والتعلّق به)، ثمّ بشهود المنعم في النعمة والشكر عليها.... ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنّ العبد كما يكون له وقتٌ في أول النهار يشارط نفسه فيه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب نفسه فيها ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الحسرة في فواته!! ولو حصل ذلك لهم فلا يفوت إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه بما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك...

ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ: «مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصيرٍ في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها؛ فإنّه إن أهملها سهل عليها مقارفة المعاصي وأنست بها وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي له أن يعاقبها».

(انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ بتصرف)

قلتُ: وهو كلامٌ نفيس إلا أنّه لا بد من التنبيه لعدة أمور هامة للغاية:

كما ينبغي أن تكون المشاركة على النفس أول النهار بعد صلاة الفجر، لا بد كذلك أن تكون بعد صلاة العصر، وفي مشروعية أذكار الصباح والمساء تنبيهٌ على ذلك؛ ولذا

أوصى ابن عمر مجاهدًا فقال: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» (رواه البخاري)، وذلك يتضمن مراجعة النفس واشتراط العمل الصالح عليها في هذين الوقتين والعزم على التوبة النصوح فيهما، كما أنّ الليل محلّ طاعات كثيرة مثل قيام الليل والاستغفار بالأسحار والدعاء في ثلث الليل الآخر، والمبتدأ يحتاج إلى مشاركة نفسه على ذلك، كما أنّه محلّ إفطار الصائمين وربما جاع في ذلك الوقت من لم يصم، فيحتاج المبتدأ إلى مشاركة النفس على عدم الإمعان في الشبع والتأنق في الشهوات كيما يسهل حضور قلبه في هذه الطاعات.

النفس - كما نقل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن شيخ الإسلام - كالبئر المظمورة كلّما حفر فيها المرء كلّما ظهر له شيء، فسبيل تنقيتها من عيوبها ليس بالتفتيش والتنقيب فيها، بل بمعالجة ومداواة ما يظهر من عيوبها.

فإن قيل: وكيف يعرف المرء عيوب نفسه؟

قلت: بكثرة الخواطر الواردة عليه، فإذا رأى من نفسه أنّه كلّما أمّ الناس أو خطبهم ووعظهم حدثته نفسه بفرح الناس به ومدحهم له ورأى محبتها لذلك، فليعلم أنّ نفسه مريضة بالرياء، ومن رأى نفسه أفضل من غيره، وأنّه كلّما حضر مع جمعٍ استحققر عملهم ورأى أنّه أفضل منهم وأعمل بالعلم منهم، فليعلم أنّ نفسه مريضة بالكبر والعجب والغرور، ومن رأى من نفسه أنّها تحزن كلّما سمعت بمدح الناس لغيره في علمٍ أو زهدٍ أو خيرٍ ما، وأنّها تحدثه حينئذٍ بفضلها عليهم وأنّ الناس ينبغي أن يمدحوها دونه، فليعلم أنّها مريضة بالحققد، وقس على هذا.

ينبغي للمرء أن يكون حكيماً في قيادته نفسه إلى الله وتهذيبها، سالكاً طريق الوسطية المنافي للإفراط والتفريط؛ فإنّ الإفراط ظلّم لها.

وقد قال الأحنف بن قيس: «من ظلم نفسه كان لغيره أظلم»، والتفريط سبب الخيبة والندامة.

قال الماوردي: «من أغفل تأديب نفسه تفويضًا إلى العقل أو توكلًا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض دَرَكَ المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلاً، وفي صورة الجهل داخلًا».

وقال بعض الأدباء: «يجب أن يكون المرء في تهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصدًا، فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فأودعها ذلّة المظلومين، وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين».

وقال الماوردي: «فإن النفس وإن كان لها مكرٌ يردي، فلها نصحٌ يهدي، فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساوئها، كان سوء الظن بها يعمي عن محاسنها، ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساوئها، فلم ينف عنها قبيحًا، ولم يهد إليها حسنًا».

(انتهى كلامه)

قلتُ: المطلوب في أمر النفس الاعتدال، فمن وجد في نفسه التهاون والكسل والغفلة - كما هو حال الأغلب اليوم - ألزمها تذكر سيئاتها وتقصيرها، واتهمها في إخلاصها، وإن وجد في نفسه غلبة خوفها وشدة اتهامها بحيث خاف عليها الاضطراب النفسي رَوَّح عنها بتذكيرها برحمة الله وفضل حسن الظن به، وذكرها ببعض حسناتها ليعتدل الخوف والرجاء.

وكذا الاعتدال في أمر تمكينها من لذاتها.

قال الماوردي: «في إعطاء النفس كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة، وفي تمكينها من كل ما تهوى بطرٌ وأشرٌ يردي؛ لأنَّ شهواتها غير متناهية، فيصير المرء أسير شهواتٍ لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي، ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد

فيه فضل، وأمّا التوسط ففيه أحمد الأمور؛ إذ في تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة، وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة» (انتهى كلامه بتصرف).

قلت: كان رسول الله ﷺ يأكل من كل ما أباحه الله - ما لم تعافه نفسه - ولكن كان لا يشبع من أي شيء في أغلب الأحيان، نعم كان لا يمتنع من أكل الطيبات ولكن دون سرف أو نهم، وهذه هي السنة.

٤ - تُشرع معاقبة النفس على تقصيرها في الطاعات، ولكن لا تجوز المعاقبة بها لا يجوز كمن ورد عنه أنه قلع عينه لما نظرت إلى حرام أو كسر رجله لما مشت إلى الحرام، بخلاف ما ورد عن بعض السلف من أنه كان إذا فاتته صلاة جماعة زاد من قيام الليل ومنع نفسه من النوم تلك الليلة إلا القليل، وعن بعضهم أنه لما فاتته الجماعة أعتق رقبتين، وعن ثالث أنه جعل على نفسه أثماً كلما نظرت إلى محرم تصدق بدرهم، وتكون المعاقبة بما ترتدع به النفس وذلك مختلف من شخص لآخر، فربما كان ما يردع نفسه إكثار الصيام وربما كان الإكثار من التصدق كما ورد عن بعض السلف أنه جعل على نفسه أثماً كلما نظرت إلى حرام صامت يوماً فلم يشق عليها الصيام، فجعل عليها التصدق بدرهم كلما نظرت إلى محرم فشق عليها فامتنعت من النظر المحرم.

٥ - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه: ٧)، عن بعض السلف أن السر ما كان في نفس المرء لا يعلمه مخلوق سواه، وأخفى من ذلك ما يعلمه الله من نفس العبد مما لا يعلمه أحد إلا الله؛ ولذا لا يستطيع أحد منا أن يجزم لنفسه أنه مخلص أو غير معجب، فربما كان في باطنه أمراض خفية لا يعلمها إلا الله؛ ولذا اشتد خوف السلف من سوء الخاتمة لعلمهم أنه ربما في باطن أحدهم من الأمراض والعيوب مما لا يعلمه إلا الله، ويكون سبباً لسوء الخاتمة، والعياذ بالله، فإذا عرف المؤمن ذلك، فلا يفرح بنفسه ولا بعملها بل لا يزال خائفاً من سوء الخاتمة ومن عيوب نفسه أبداً، نعم - يرجو رحمة الله

وفضله، ولكنه يخشى من سوء الخاتمة، وكيف لا، وقد كان ﷺ يكثّر من قوله: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

٦- من أعانه الله على نفسه وهذّبها - فيما يبدو له - فليحذر من عجبها وتطاولها للرياسة وحبّ الشهرة قال بعض السلف: «آخر ما يخرج من قلوب الصّديقين حبّ الرياسة».

وقال يحيى بن معاذ: «لا يفلح من شملت منه رائحة حبّ الرياسة».

وقال أبو داود السجستاني: «الشهوة الخفية حبّ الرياسة».

وقال أيوب السخيتاني: «ما صدق عبدٌ قطّ فأحبّ الشهرة».

وهذا آخر ما تيسر جمعه ممّا قصدتُ، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله رب العالمين....

